رواية

الموت في وهران

الحبيب السائح

الموت في وهران

الموت في وهران

الحبيب السالح

الطبعة الأولى / ١٤٣٥هـ ، ٢٠١٤م
حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر
٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة
تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥ ، فاكس:٢٣٩٦٢٤٧٦
E-mail: elainpublishing@ymail.com

الهيئة الاستشارية للدار
أ.د. أحمد شوقي
أ. خالد فهمي
أ.د. فتح الله الشيخ
أ.د. فيصل يونس
أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي
المدير العام
د. فاطمة البودي

الغلاف : بسمة صلاح

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٤٥٠٣ /٢٠١٣
I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 239 - 0

الموت في وهران

رواية

الحبيب السائح

دار العين للنشر

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

السائح، الحبيب.
الموت في وهران: رواية/ الحبيب السائح.
الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٤
١٧٦ ص؛ ١٤×٢٠ سم.
تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ٢٣٩ ٠
١- القصص العربية
أ- العنوان
٨١٣

رقم الإيداع/ ٢٠١٣/١٤٥٠٣

أسماء الشخوص، هنا، من فعل التخييل.
أي تطابق لها في الواقع لن يكون سوى
محض صدفة.

الفصل الأول

1

كنت قمت، إثر معاودة الدق على بابي أشد إلحاحا: «نعم، لحظة!»

سمعت صوتها: «افتح!»

مثل طيف مسحور ملأت العتبة: «يا إلهي! أنتِ فعلا!»

ردت الباب خلفها: «وهل كنت تنتظر غيري؟»، رامية حقيبتيْ يدها وسفرها: «شْحال توحّشْتك! ضمني بقوة!»

ناديتُها من خلف دمعي: «بختة، صديقتي!»

أجهشتْ: «هواري! ما تبكيش.»

ضغطتُ خدها إلى صدري: «أنت أُمَّيْمْتي.»

أخذت بلسانها طرفا من سلسلتي ومصّت: «عرقك الذ من ريقك.»

همست لها: «لم تفارق رقبتي، أبدا.»

تنهدت. فأغرقتُ مشمّي في شعرها: «وتطيّبت من عطر أمي!»

حضنتْ وجهي براحتيها الناعمتين، بكل الألق من عينيها العائدتين نحوي بتذكاراتنا الضالة: «أوه، يا أنت. كم شغلتني، كم!»

فأمسكت بمعصميها. تلثمت كفيها. ضغطتهما على خديّ: «أنت دفئي. أنت ناري!»

عقَدتْ يديها عند قفاي: «احملني إلى السرير. جئت أهديك ليلتي. أنا نبْغيك أنت!»

كان ذلك أمس.

الآن تكون بختة الشرقي، حيث انسحبتُ من جنْبها في سرير أمي، تسبح تحت برنوس جدي في عذوبة نوم عميق. حين تفيق، سنحضّر قطعة الحلوى بأربع وعشرين شمعة. ومساءً، ننزل فأمر بها على رصيف بائعي الورد في ساحة هوش (سابقا). ثم ندخل أول محل في شارع خميستي كنا تقاسمنا فيه أولى بيتزا مشتركة.

فاليومَ يومٌ يأخذ فيه الزمن من عمري عامي الرابع والعشرين، من غير أن أدري إن كان سيمهلني قليلا، كما أنا من الرزمة أمامي أخذت هذه الورقة الأخيرة، مثل الأولى منذ عام بالضبط، لأضيفها بعد حين إلى المسودة وأضع القلم.

2

ما الذي يُكرهني على نقل وقائع من أيامي أنّها كل ما يمكن أن يملأ حياة شخص مثلي إلا الفرح والحلم؟ لا شيء؛ إن لم تكن وحدتي التي تحيط بي من كل زاوية في هذه الشقة المحزونة بفراقاتي وضياعاتي المتعاقبة! وحدة تبغي محاورتي. وحدة ضاقت ذرعاً بوحدتها.

ففي خريف، مثل هذا الخريف، كنت بلغت ستة أعوام. كان ذلك في سنة 1992. أذكر هذا لأن والدي معمر صفصاف كان هو الذي أوصلني أول مرة إلى مدرستي في حي اللوز (ليزامنديي، سابقا)، كيلا أراه بعدها إلا يوم صفع أمي بشدة ليغيب إلى الأبد.

كنت أمشي حثيثا خلفه بخطوة. وكان هو، مثل عسكري، ينتظره قائده لتقديم تقريره، لم يمل ولا انحرف. أو، كان راقبني إنْ ما زلت على

المسافة التي أخذها عني لما خرجنا من بيتنا في ذلك الصباح الغائم المنذرة سماؤه بمطر، لا بد كان نزل بعيدا.

عند الباب الحديدي المطلي بالأخضر، ذي المصراعين، كان نظر إلي من علو، واضعا راحته الثقيلة على كتفي، ثم حاد ونقلها إلى ظهري. إذ أتذكره، الآن، يعاودني الإحساس بأني وقفت عند قدَم جُرْف فاشرأببت إلى صقر تَفحّص طبيعتي.

كنت لا أحمل محفظة ولا ألبس مئزرا. فإنه اليوم الأول الذي استعرض فيه التلاميذ، جميع التلاميذ، ملابسهم، حتى غير الجديدة كلية! فبعضها كان يعود إلى آخر عيد صادف بداية العطلة الصيفية.

لم تكن تلك هي حالي أنا. فما زلت، كما أحبت لي أمي أن أسبح دائما على موجة الموضة، ألبس للفصول الأربعة ما يناسب جو وهران الساحلي. وما كنت لأعود إلى الدراسة، بدايةَ كل عام جديد، إلا بملابس جديدة.

فمن جهاز دخولي السنة الأولى الأساسية، احتفظت أمي في خزنة ملابسها إلى آخر لحظة بسروال الدجين الأسود والتريكو الأصفر نصف الكم بجيب وبالتنيسة أيضا، برغم تآكل طلائها الأبيض قليلا. ولكن أيضا ببطاقة مدرسية باسمي ولقبي بخط يد المدير، لا شك. كان عليها ختم المدرسة بنصف دائرته فوق صورتي بالأسود والأبيض.

بطاقتي المدرسية الأولى ودفاتري من قسم السنة السادسة الأساسية،

وقلم ريشة هديةً لي من جمال الدين سعْياد، ذلك كله ما كان بقي لي في محفظتي الزرقاء، من مادة السكاي بجيبين داخلين ومِقفلة كُرومية ومقبض عاجي، لا تزال معلقة في جدار غرفة نومي مقابل صورة أمي، التي بعد أربعينيتها كبّرتها في إطار.

قبل عام، كنت سحبت ذينك اللباسين وطويتهما ووضعت فوقهما التنيسة في كرتون قدمته لحارس المدرسة في سان پيار (سابقا)، في خريف كهذا الخريف، وتواريت في الزنقة يلاحقني سؤاله: «لمن هذا؟» أحس يد أبي في ظهري إذ دفعني إلى الداخل وصوته العميق الممتلئ يسكنني: «هواري، ورّي لهم بلّي أنت رجل!»، من غير أن يكون قد اضمحل تماما في شعوري أنه، كما ذلك اليوم، لم يفتأ يراقب خطواتي إن كان يربك إيقاعَها التفاتي إليه.

فقد قلّدت مشيته، أول مرة، كما لم أقلد شيئا منه مثلها. وعبَرت، وسط التلاميذ الآخرين، مكبوسا بسطوته المتأرجحة في ترائبي بين الخشية وبين الاطمئنان، على أن جانبها الأول كان له في نفسي أثر مبهم ليصير اليوم مظلما. ومددت أذنَيّ إلى ما ورائي فسمعت بكاءات المتهيبين والمتلكئين. كانت صادرة غالبا من بعض أولئك الذين في السنة الخامسة خاصة، وكنت أنا أصبحت منهم، يصيرون هم المتهامسين عن مشهد الصغار الجدد، مدلّلي أمهاتهم، كما كانوا يُنعتون.

جمال الدين سعْياد كان هو من استذكر لي، يوم بقّاني على خير مغادرا وهران مع أسرته، أني مثله كنا لا نشبه، في سنتنا الأولى، أولئك الصغار

المذعورين والمبهورين، أيضا. وأعطاني القلم تذكارا.

وإلى أرجاء الساحة، كنت سرقت هنا وهناك نظرات ائتمان إلى التلاميذ الآخرين الذين كانوا يبدون أكثر هدوءاً، بلْ وثقة في النفس، كما كنت أنا وقفت بعد خمس سنين، ظهري إلى الجدار وعيناي على باب الدخول لأيام، مشفقا على حال المتباكين.

فإن المطر وحده كان بين آنٍ وآخر يمنعني ذلك. كنت، إذا نزل غزيرا، غالبا ما احتميت بسقف رواق الأقسام العلوية. كانت دقة جرس الدخول مُصمّة ومفزعة كنذير شؤم، بعد أن بدلت الأجراس الرنانة بصفارات إنذار، تستعملها مجموعات الحماية المدنية والسجون. فهاج في نفسي، مرة ومرة، أن يظهر عند الباب طيف الذي لم ألتفت إليه ذلك اليوم. وليتني كنت فعلت!

كنت سأطمئن. كذلك يراودني الآن شجنٌ شقيٌّ عن أبي إن كنت سأراه لا يزال واقفا إلى حين اختفائي وسط الساحة ليغادر بعدها. فربما كانت نظرتي الوجلة، كما كنت سأحسها، قاطعت خزرته الأخيرة إليّ. فإني لم أزل غير واثق من أنها كانت ستكون مهيمنة، كما ثلمتْ ذاكرتي. لا بد أنه كان، وهو يدفعني إلى الداخل، أراد لي أن لا أبصر قناع أبوّته الصارم يسقط فيُسفر لي، على وجهه وفي عينيه، شيء من ضعفه.

لا أذكر أني رأيت أبي كيف يمشي بظهره، إلا يوم دخولي المدرسي ذاك. غير أني لا أنسى كيف نظرتُ إلى أمي مرة من ساحة المدرسة تغادر معلمي شامخة الكتفين، ومرات كثيرة كلما خرجتْ قبلي من البيت صباحا

خاصة. وهذه المرة وتلك في البيت أيضا في أيام راحتها الأسبوعية، وكانت لا تأخذ عطلة طويلة أبدا، فلاحقتها بعيني الراقصتين غبطة على حركة جسدها المتناغمة، كما تكون عليه هزهزة شجرة خوخ عامرة – هذه رايتها متهدلة لوناً أحمر في جنان فيللا عائلة بختة الشرقي في حي مديوني يوم دعتني إلى حضور حفل نجاحها في البكالوريا فأهديتها ديوان المتنبي لأنها كانت مولعة بشعره فأهدتني هي، لنجاحي أيضا، بعد أن استبقتني إلى آخر الحفل، سلسلة من ذهب خالص، علّقتها بيديها في رقبتي. الآن يغمر روحي عطر أنفاسها. وقالت لي: «تمنيت أن تقابل والدي!»، معتذرة لي على أنه انشغل بحفل تسلّم مهامه الجديدة كمحافظ.

قد يكون ما أثناني عن أن ألتفت إلى أبي يومها أني وجدت نفسي منجذبا إلى مجموعة من التلاميذ. ثلاثة أو أربعة ظهورهم إلى جدار الساحة رأيتهم ركّزوني، من دون الآخرين. نظراتهم المائلة تلك، أستعيدها، كما حركات شفاههم السريعة، كأجمل ما تكون عليه سخرية خبيثة تسكنهم إشفاقا على ما كان ينتظر مثلي، لا محالة. خيّبتُهم، لا أتريّب اليوم في ذلك. فقد رجعت في الغد وحدي. ودخلت في الصف. وأنشدت، متخيلا نفسي في الجبل، كأني جندي: «فاشهدوا فاشهدوا!»

كانت غيبة أبي اليدَ التي كفأت فوق رأسي صحن مرارتي. فإني لا أدري كيف كنت، خلال ست سنين، أنظر بلا خجل في عيون من يعرفون واحدا مثلي لم يروا له والدا يوما؛ من جيراني خاصة الذين كنت أقاسمهم الطريق إلى المدرسة. ولا علمت ما الذي كان حال دون بعضهم، ممن كانوا

اقتربوا مني، أن يسألني عن ذلك، قبل أن أتكشّف في مرآتي بعد سنين، أن في ملامحي انقباضاتِ شراسة عميقة فعلا، إذ كنت التجأت إلى غرفة الحمام هاربا بخجلي من نفسي على صفعة وجهتُها لحسنية، لصراخها على أن ممونها بجرعتها من الغبرة البيضاء أخلف عنها الموعد، وكنت أنا مَن منعه الرجوع مرة أخرى، على أن يترك لها الأمانة عند قاديرو صاحب طاولة الدخان، الذي صرت زبونه في الحي بالنيابة عنها في شراء علبة سجائرها ومعها مرتين على الأقل كان سلمني المادة.

3

يومذاك، تعمدتُ ترك حسنية، دقائق طويلة، تنتظر متوترة أن يُدق بابي، كما دقته علي أول مرة، في الربيع الذي تلا وفاة أمي، ففتحت لها فدهمتني بصدرها ودخلت بلا استئذان، أكثر توترا، محفظتُها اليدوية على كتفها، رافعة ذراعيها إلى أعلى، كأنما من سلاح في ظهرها. لم أتعرف عليها. ولا كنت تذكرت أنه سبق لي أن رأيتها. وقالت إنها هي التي تعرفني. وهي التي كانت تتتبع أخباري مذ طردي من الجامعة. وتعرف أيضا أني أقيم وحدي.

كنت انتظرت أن تضيف أنها تعرف أيضا أني فقدت أمي. وقدمت لي نفسها باسم حسنية. وطمأنتني، في تدلّل، على أنها لم تأت لتسرقني أو لتفتح الطريق لغيرها للاعتداء علي. وبشّقت لي محفظتها، كما فرْج عاهرة.

وقربتْها مني. ووسعت الفتْح، فظهر لي مسدس، من ضمن بعض أشيائها، كبطاقة هوية وعلبة سجائر ومشط. وقالت لي إنها كانت تريد قتل كَبابَة النذل، على ما ألحقه بها، لولا وجود خليط من شهود كانوا جميعا في حال عري سكارى مزطولين. فلم أسألها من يكون كبابة هذا.

كنت سأرى وجوها مثل كبابة، كما تخيلته، بقفاهم المدرّجة ورقباتهم الغليظة وكروشهم التي تسبق أرجلَهم يخلطون في شربهم بين أنواع من الكحول على ظمإ ويأكلون كل شيء على نَهم. رأيتهم في شاطئ الأندلسيات تحت الشماسيات يقهقهون يتمرغون؛ رأيت أحدهم التهم نصف رغيف صندويتش في نهشتين. وآخر بلع موزة دفعة واحدة مثل حبة حلوى. وثالثا خذب من سيجارته ودفق في بطنه كازوزة بنفَس واحد. ورابعا مال على رفيقته مثل دمية لاعبها. على سقيفة حانة ڤوميس كانوا قبالتي ثلاثة في البنتاكور. أذهلني شربهم البيرة! يحتسون الزجاجة الواحدة في جرّتين كما يجرعون ماء على عطش. وفي مطعم الكورنيش رأيت شبيههم يدخل يده في صحن الپايلا يكوّر اللقمة ويدحوها مثل كومة خليط خرسانة. على أنهم في ملهى بيارتس كانوا كثيرين في ملابس عديمة الذوق والانسجام، يرقصون ببطونهم ويصيحون على البرّاح للالتفات إليهم ملوحين بحزم الأوراق النقدية يعلقها بعضهم في شعر الراقصات أو يحشوها بين نهودهن. شبيههم في سجني كان خِضْرو البومة. ومرتادو الميلومان، في شارع ميروشو (سابقا)، يكادون جميعا لا يكونون من هؤلاء.

ثم هزت في وجهي محفظتها أن أُخرج المسدس. فترددت. فتظرفت لي باني أستطيع أن آخذه بمنديل إن كنت خائفا من وصمه ببصماتي. فركزتُ حركة يديها وسحبت السلاح. فنبهتني أنه معبأ. فراقبت صمامه، كان في وضعية إغلاق. فجلستْ، كما عيّنتُ لها، على السداري الثاني منهكة.

كانت، وهي ملقاة في تبعثر، مثيرة جدا. بدت لي ولجت في حال انتشاء من سكر. ولكنها قالت إنها جائعة. وقالت أيضا إنها تشعر بحاجة إلى دوش أكثر من ذلك. وشهقت، رافعة إلي عينين مسهدتين غارقتين في عذوبة حزينة: «كبابة كان يحبسني في عمارة ميرمار داخل شقة مؤثثة ومجهزة بآلات تصوير.»

إذ ذكرت موقع الشقة من الطابق ورقمها، تبين لي أنها هي التي تقابل باب الأستوديو الذي كنت أتردد عليه من وقت لآخر لأتنسّى فاجعتي في أمي، تاركا مفتاحه، كلما غادرته، عند الحارس عمي بشير، الذي كان جمال الدين سعْياد قبل رحيله إلى تبسة، عرّفني عليه قائلا له: «هواري، صديقي. إذا جاك هو أو واحد آخر يرسله لك على المفتاح أعطه له.» فرد، مبتسما تجاهي أنه سيطلب من غيري كلمة سر، اتفقنا عليها. وقال لي، نحو جمال الدين سعْياد: «عرفت والده في قيادة الناحية العسكرية الثانية لما كنت جنديا بسيطا ملحقا بمصلحته، قبل أن أتقاعد. واحد من أشبال الثورة وضابط من كلية شرشال..بمثله سيظل هذا البلد، الذي حررناه بدمنا، عزيزا.»، متظرفا له، نحوي: «وكنت أنت لا تزال طفلا!»، رافعا رأسه إلى شهق العمارة الضخمة المنتصبة، كما عملاق خرافي، على قدمين

بينهما تعبر السيارات في الاتجاهين: «مَنْملة! الداخل إليها أكثر من الخارج منها.»

وكانت أضافت أنها هاربة الآن من كبابة، وليس لها من يؤويها غيري، وكنت أنا لا أزال مكمود القلب لرحيل أمي. ثم قامت وسألتني أين الدوش. ورمت من قدميها حذاءها، كانت لا ترتدي جوارب. ونزعت معطفها. فأريتها الباب، مَسُوقا لإرادتها. وتبسمتُ، لا سخرية ولا عبثا. الآن أقول تعبيرا لها عن انصياعي بقدرية قاهرة. فإني، قبل أن تدخل الحمام، لبّيت لها بلا تردد كل ما طلبته من النعالة إلى البشكير إلى السيشوار.

كنت ظننت أني سأجد في نفسي إرادة لئلا أعطي الوافدة عليّ قطعة واحدة من ملابس أمي الحميمة ولا العادية. غير أني، لندائها الأول من داخل الحمام تسألني إن كان لدي ما تلبسه على الجلد، عرضت عليها سوتْيانْ وسليپْ وقميجة، كلها في علبها مما لم تكن أمي قد استعملته. فأرسلت إلي، بعد حين، فاتحة باب الحمام: «على مقاسي! صحّيتْ.»، مداعبة القميجة بأناملها، ممررة إياها على نهديها وبطنها.

فملابس أمي، الداخلية منها خاصة، لا تزال كما تركتْها في خزنتها مرتبة، محتفظة بمزيج من بقايا عطرها ورائحة جسدها. فغير ما مرة سحبت إحداها وحننت بخدي عليها وتشممتها. فهزمتني مرة نوبة بكاء على وجودي وحيدا في مدينة كبيرة ضاجة صاخبة مثل وهران في خريف كانت بختة الشرقي خلاله رحلت إلى الجزائر العاصمة، تاركة لي شذا من بشرتها وتذكار السلسة في رقبتي ورقم هاتف آخر للضرورة.

بعد عشاء، من كبدة مقلية وجبن وتفاح، طلبت حسنية إلي إذاً أن أتامل في وجهها، ناضحا ندىً. أن أتفحصه، مثيرا لشهوة بطعم.. آه الخوخ! أن أحاول أن أتذكر، متحرشة العينين بي. فلم أنبش لها، برغم ذلك، أي تذكار. فخللت، بأصابعها العشر، شعرها الذي كانت جففته، مثلوما بفتائل رقيقة سوداء تلوح من صبغة ذهبية باهتة، مقصوصا مرسلا عند أسفل أذنيها، بلا حلي، ثم ردته في حركتين إلى الخلف فتناثر راجعا إلى وضعه.

وقالت لي: «يجب أن أعترف لك. سألت عنك واحدة لقيتها صدفة في صالون حلاقة كنت رأيتها، في الجامعة، رفقتك أكثر من مرة. هي التي أخبرتني بموت أمك.»

لم أقل لها إني كنت لا أعرف سوى بختة الشرقي، التي كانت تأتي وتذهب في سيارة خاصة فلا يبقى لي ولها خارج أوقات المحاضرات والأعمال التطبيقية سوى وقت ضيق جدا يتيسر من غياب هذا الأستاذ أو ذاك أو من بعض الإضرابات التي تنشأ فجأة. ولكني رميت لها، بلا قناعة: «يمكن أن تكون أي واحدة!»

فلم تأبه، مضيفة: «كذبت عليها لما ادعيت لها أني أريد تعزيتك لأنك كنت من دفعتي. لذلك دلتني على عنوانك. إنها الصدف! ولكنك كنت دائما تحضر في ذهني كلما تذكرت الجامعة.»

وعاتبتني على أني نسيتُ أنها كانت تلك الطالبة التي آزرتني باحتجاجها على أستاذ القانون في جامعة السانية.

4

لم أكن أدرك أني حملت إلى قسمي الدراسي شارة اليتم إلا لما قد تلبستني حيرتي على أبي أن لا يظهر، كما يظهر كثير من أولياء غيري من الأطفال. فرأيته، خلال شرودي بين حين وحين عن عين المعلم الطاهر فراحي، في انتظاري عند المخرج. أو وجدته هو من فتح لي باب بيتنا إذ رجعت. أو كنت استيقظت صباحا فأبصرته واقفا على رأسي. لم يحضر في منامي، أبدا. وأرّقني أنْ تغيب أمي، مثله.

و لم يكن يثبتني من شرودي، غالبا، سوى المعلم كلما مال عند السبورة يمينا. فذلك من بين ما كان شدني إليه للحظات، فتابعت حركة يده الشمالية في رسم حروف الكلمات، كما بدقتها المطبعية في الكتاب، وكذا الأعداد والرموز والأشكال الهندسية، وفي تخطيط البيانات والخرائط. أنا، حاكيتُه

حد الافتتان. ولأنه كان واصل معنا المسار حتى السنة السادسة، فنادرا ما لم يخف عليه شيء من حركاتي وسكناتي.

كنت أحدس ذلك منه فأتَحيّن أن يُحول طرْفه إلي لأشتت نظري من جديد في كتاب القراءة أو في دفتر التمارين أو أشير إليه بعيني، إذ أفتحهما على وسعهما، أني أنتبه، حين يشرح، أني معه. فجازاني، وكان ذلك منه ما أشعرني بسعادة مفقودة، بأنْ كلفني، غير ما مرة، القيام إلى السبورة. كانت كتابتي تعجبه. قال لي ذلك إذ سلمني ورقة آخر اختبار لنا معه: «في أصابعك صنعة الخطاطين!»

لو لقيته اليوم كنت أجبته أني صرت علامة للفشل. لكني، في تلك اللحظة، أحسست أني تحولت حزمة ضوء سبحت في فضاء ليل ماحق.

كانت أمي، وهيبة بوذراع، ولم أعرف لها أختا ولا أخا أو عما ولا خالة، غير صورة قديمة لأبويها، ولا لقبا قبل أن أقرأه يوما في عقد ميلادي، زارت معلمي ذاك أول مرة في نهاية سنتي الثالثة.

أذكر هذا، لأن حنين طفولتي لا يزال يهصرني إلى مدرستي الأولى في حي اللوز (ليزامنديي، سابقا)، حيث كنا نسكن بالكراء في حوش مشترك قبل انتقالنا إلى بناية، أقمنا في غرفتين منها ومطبخ وحمام في الطابق السفلي، واقعة في حي سيدي الحسني (صنناس، سابقا).

فقد كنت، غداة رحيل جمال الدين سعْياد، رجعت إلى حيي الأول ذاك فوجدت الزمنَ لم يغير فحسْب باب المدرسة، من مصراعين نصفهما

العلوي بالحديد المشبوك، إلى صفيحة مدرعة، ولا طلاءَها الخارجي الأصفر الباهت إلى لون هجين مقيت، ولكنه أهدر أيضا كل أثر لي رسمته أعوامي تلك في الزنقة التي بدّلت معالمها بناياتٌ جديدة بفراجات مسدلة الستائر الحديدية وحوانيت تجارية لأي مادة تخطر على بال.

وكنت أردت أن أتعرف على موضع البيت الذي فيه قُتل والدي، في الحي. فلاحظت أن صاحب حانوت كان يترصدني فاقتربت منه وسألته. فأخبرني أن الدار جُرفت وتمت تسويتها مع الأرض. وأشار إلى بناية من طابقين وسطح: «صاحبها هو الذي اشترى القطعة بعد ذلك من مُعلّما»

هناك، في (صناناس)، ذقت حموضة غربتي الأولى داخل متوسطة عقبة(البوليتكنيك، سابقا) – كما كدت أبلعها بعد سنين في السجن أشد وطأة على عقلي وعلى روحي ليلة أنْ شعرت أني ساكون في غدي فقدت سيادتي على جسدي إن تنازلت عن حرمته إلى خِضْرو البومة، تحت تهديده إياي بخنقي، بعد أن راودني غير ما مرة في السَاحة وفي الريفكتوار، إذ أفسح إليه من كان ينام بجنبي في صالة الرقاد الجماعية. فأظهرت له أني أرضى ولكن في المغسلة. فسبقته وأنزلت عن مؤخرتي سترتي، تركيزا لاهتمامه عليها، مبقيا على السليپ. وأمسكت، عند عانتي، بمقبض مثقب الثلج، سفوده بين وسطاي وسبابتي، أحسني تحولت كتلة حديد، لم يبق مني ليناً غيرُ ما أتاح لي أن أشم رائحة أنفاس خِضْرو البومة ملفوحة نتْناً من خلف أذني: «غدوة نتحف اسمك بإضافة تَاء مربوطة إلى يائه!» فاستدرت، كما روبو مبرمج للتدمير. وجهت، بكل ما توتّر في عضلاتي

من قوة، رأس السفود إلى أسفل سُرته العارية. بزق الدم. عاودت أشد قوة إلى بطنه مرة ثانية. تجشأ. وثالثة في صدره. شهق. ورابعة إلى أسفل حنجرته فتلطخ وجهي، فيما ترنح هو إلى الخلف ناشرا ذراعية في ذهول. لاحقته بواحدة أخرى في عينه. فهوى، كما كيس بلاستيكي ممتلئ قذارة، من ثقوبه خرج خليط الدم والنتن الذي كان لي أن أشمه. فرجْتُ بقدمي ما بين رجليه. طأطأت. وجهت له أخيرة على مستوى جذر ذَكره، الذي كان تراخى. واستقمت فأحسست صرختي المحبوسة ارتدت متنائية إلى سحْق أعماقي، فيما ردَح هو مثل شاة ودوّر عينيه على احتضار ذابل: «ولد القحبة، قتلتني!» ثم همد.

عرفتُ خِصْرو البومة واحدا من أولئك الذين تسبق أرجلَهم كروشُهم، قفاه متدرجة ورقبته غليظة. كان يقضي عقوبة السجن بثمانية أعوام لإخلاله بالحياء في حق قاصر وترويجه محظورات.

فلا شيء، إذاً، كانت متوسطة عقبةأنبتته في كياني غير بذرة التثبيط. فقد امتلأ قلبي سأماً من قاعاتها الدراسية المكتظة البائسة الجدران. وانشحن عقلي تمردا على نظامها. لو أني كنت وجدت من يؤازرني عليه أو لمست في نفسي وقاحة زائدة في ردود أفعالي تجاه أعوانها وبعض أساتذتها لأعلنت عليه عصياني.

وإني لفكرتُ فعلا في طعن مستشارها العام الحقود وأنا أقلب في مطبخنا سكينا، كنت حملته في محفظتي، غداة محاولته معاقبتي في مكتبه فحميت بساعدي وجهي من لكمته، من غير أن أهتز. لم أكن تأخرت

فعلا عن الدخول. إنما كانت الغيرة قلقلته أن يراني أدخل مع بختة الشرڤي، نتحدث ونضحك. ولم يكن يعلم، كما لم أكن أعي حينها، أن رفيقتي كانت هي مسوغ وجودي في عقبة.

كنت انتظرت أن يتحرش بي المستشار مرة أخرى لأشْرِط خده أولا، لقصر قامته المدكوكة، وقد ضبطت طريقة الضربة بعد أن تمرنت عليها أمام مرآة الحمام. فاكتفى في مرة ثانية وأخيرة بأن توعدني بأنه سيعرف كيف يؤدبني بأسلوب آخر. فلم يفعل سوى أنْ ألّب علي حذيفة الشيخ، أستاذ الرياضيات.

كنت أحس ذلك الأستاذ يحمل في صدره نقمة العالم على التلميذات اللائي يخالفن إرشاداته عن التحجب والكف عن الإغواء بالماكياجِ: «الشيطان يأمركن بالفسق!»، قاذفا حمما من لسانه البني اللون من أثر مسواك النساء: «أنتم حطب جهنم!»، في وجه تلاميذ مثلي لم يعودوا له بكتيبات، عن ظلمة ما بعد الموت وأسئلة القبر وعذاب الجحيم، تباع على أرصفة سوق المدينة الجديدة. يراقبها أحيانا عند بعضنا. وكان يقتطع من حصة الصباح خمس دقائق وأحيانا أكثر منها ليذكرنا بمنكر آخر وجب تغييره باليد.

إن كان لنفوري من عقبة رائحة فهي انبعاثات احتراق مَفرَغة عمومية. فإني لذلك، ولم أكن فعلته من قبل، توضأت يوم جمعة وقصدت مسجد الحي فوجدت إمامه، في لباسه الوهراني التقليدي من عباية بلون اللباء فضفاضة وعمامة صفراء ملفوفة على شاشية حمراء، كما في حديثه

وخطبتيه، أكثر لطافة وانشراحا وأريحية. فهدأ خاطري، على تضاؤل مشهد بختة الشرقي إذ قامت في وجه الأستاذ حذيفة لما وبخها آخر مرة على إطلاق شعرها فوق كتفيها وعلى لبسها سروال الجينز اللاصق: «أستاذ، اهتم بدرسك. حياتي الخاصة لا تعنيك. والدي هو الوصي علي.» فتبسمت أنا. فحدق إلي بشماتة، على شفتيه: «كأنك لست ابنه!»، كما كان نطقها لي مرة ولكن بتلطف إذ استبقاني في نهاية الحصة وهمسها لي بفصاحة، لأني لم أبد له أي استعداد للاقتراب منه ولا كنت اقتنيت أيا من تلك الكتيبات. فسكتُّ عن أن أجيبه لما ذا قُتل والدي، فيما كانت بختة الشرقي خرجت لتعود بعد حين رفقة المدير، الذي أشار إليها بالرجوع إلى مقعدها. وطلب إلى الأستاذ أن يتبعه.

في الغد، كنا استرجعنا من حذيفة الشيخ تلك الدقائق الضائعة. وصرت أنا وبختة والأخريات السافرات عرضة لمقاطعته الحانقة، خلال الدرس. أما جمال الدين سغياد فلم يكن، مثلما بدا لي غالبا، يهتم بشيء أكثر من اهتمامه بدروسه.

مع مسافة الزمن التي تفصلني عنه الآن، أقدّر أن جمال الدين سغياد كان مختلفا بطبعه. فغيره، مثل بختة الشرقي وابنة المدير ذاتها، تفوقوا دائما. لكنه، برغم ذلك، كان بعد الحادثة قال لي بلهجته الجادة عند باب الخروج، حيث وقفنا ينتظر السيارة التي كان يأتي فيها ويذهب: «حتى الأساتذة يغارون من تلاميذهم! لكن أستاذ الرياضيات يبدو أنه يحقد.»

ولأن حذيفة الشيخ كان لا يستطيع أن يدحض نتائجي في الفروض

العادية والفجائية والاختبارات خاصة فإنه صار يكتفي بأن يسجل على كشف نقاطي ملاحظات من مثل «قليل الاهتمام».

بختة الشرقي هي التي، في بداية عودتنا من عطلة الربيع خلال سنتنا الأخيرة في المتوسطة، وقد صادف ذلك رحيلنا أنا وأمي إلى حي سان بيير (الأمير، حاليا)، كانت أخبرتني أن حذيفة لن يَعود لأنه مات، كما علمت من والدها، المفتش في دائرة الشرطة القضائية. وأرتني، عند باب الخروج، قصاصة نبإ مقتله في انفجار قنبلة تقليدية كان هو واثنان آخران يزرعونها على جانب طريق عبور دوريات الأمن بين مدينة بومرداس وقرية بني عمران.

5

فسنواتي الثلاث، في ثانوية لطفي، بأيامها الكئيبة، كانت ثقيلة على مزاجي ممططة وخانقة! تخلصت من بعضها، قطّعته، ذَريْته بغياباتي المتكررة عن درس التاريخ والتربية والرياضة؛ مرات بإماتتي أقارب خياليين. ومرات بمرضي أبرره بشهادات طبية مزورة دبّرها لي، كل مرة، من كنتُ أُخضره ولياً لي إلى الثانوية كلما تفاقم أمر تلك الغيابات، على أنه خالٌ لم يكن أبدا قريبا لأمي.

فعبدقا النڤريطو، في صباح رحيلنا ذاك أنا وأمي إلى حي سان پيير، كان أول سكان العمارة، بل، وَوحيدهم الذي خرج لمساعدتنا على تفريغ أثاثنا من الشاحنة. ما كنت لاحظته عنه حينها أنه وقف، لم أدر منذ متى وكأنه كان في انتظارنا، وأمعن نظره نحو أمي ثم إلي بدرجة الاستقصاء

ذاتها. فدارت في ذهني عنه ظنون سرعان ما تبخرت إذ تبسم، متقدما: «أنت وأنا! قل للوالدة تدخل.»، كمن يعرف فعلا أنها أمي. وأصدر أمرا إلى السائق، كأنه هو رئيسه: «أنت عاونّا، يرحم والديك!»

أزعم أن وازع رجولة الوُهَارْنية كان هو ما أشعل في دم عبدقا النڤريطو تلك النخوة، لرؤيته امرأة عزلاء، إلا مني، استحقت العون على غبنها.

كان يسكن فوقنا بثلاثة طوابق، صعدتها أول مرة، غداة استقرارنا، لأنقل إلى زوجته سلة من البرتقال والتفاح والموز، كانت أمي أرسلتها إليها، تعبيرا لها عن امتنانها على مساعدتها إياها في ترتيب الأثاث، وكان ذلك لا محالة بإيعاز منه. فهو الذي فتح لي ثم نادى: «عَيْشة، يا عيشة!»

يوم انتظرني عند مخرج الثانوية ليعتذر لي عن الصفعة الخفيفة التي وجهها لي أمام الناظر، فقلت له: «أنت ممثل بارع!»، ردّ، مغتبطا: «تعرف، هواري؟ ما نسيتش سلة التشين والتفاح والبنانْ.»

وفي قهوة الوداد، حيث كان يحب أن يجلس، استعاد لي وجوها وطنية من فدائيين، من بينهم والده، كانوا يعقدون في خلفيتها خلال الحرب اجتماعاتهم السرية. ثم ضحك لي: «وضعت السلة كما هي على المائدة. كنا نتغدى على شوية زيتون وسلاطة بالطماطيس والبصل. وتذكرت الخبزة!»، محاكيا صوت أحد الممثلين فيها: «"الزيتون آعيشة! قولي لي كُلْ، آعيشة!"» ثم زفر: «آه، وقت جميل كان! علولة، رجل عظيم! غدروه في شهر رمضان.»، لاماً على وجهه بيديه: «آه، لو كان

سي عبد القادر ما زال في هذه الدنيا!»، ماسحا عينيه: «ربما كنت الآن تقنياً في الإنارة المسرحية، على الأقل.»

فمن مصروف الجيب، كنت أقتطع ما أشتري به ياوورت أو فاكهة أقدمها، على أنها من أمي، لزوجته، لتأديته دور وليّي، الذي حدث أن تعداه في تلك المرة إذ صفعني أمام الناظر. وكان مرة توعدني بأنه سيجبر أخته، يعني أمي، على أن تحرمني من مصروف الأسبوع. كانت أمي فعلا تعطيني أيضا ما يرفع عني غصة اشتهاء الشوكولا وگاتو الميلفاي. لم أكن أدخن. تعجبتْ !ذلك حسنية ليلة أن أشعلت لها سيجارتها بعد أول عشاء في بيت أمي.

فإن عبدقّا النڤريطو، كما كنت اكتشفته، لم يكن سوى عامل تقني في مسرح وهران يتقاضى راتبا زهيدا غير منتظم لم يكن يكفيه هو وزوجته وابنته إتمام شهر على الخبز والحليب. فتمثيله ذلك الدور تجاهي إنما كان بالتقدير تعويضا عن تبخر حلمه في أن يصبح فنانا ضمن فرقة علولة المسرحية.

ثمة، في الوداد، كان عبدقّا النڤريطو وشم له في قلبي مودة بأن نظر إلي، إذ أقسمت له على أن أدفع ثمن القهوتين: «اسمع، هواري! لا تستحي أن تناديني أنت أيضا النڤريطو.» وتبسم لي: «اسم يِجي عليّ!»، منبهاً إياي أن لا ألاحظ ملامحه: «شف! ما نيش فحمة.» فتظرفت له: «أنت سْمر وشْباب!» فأخذ يدي في يده، معلنا: «جدودي ڤْوارير من ليميون. هجروا هنا لوڤْرنْ عام دخلت فرنسا ثمة للصحراء.» ثم

أطلق يدي: «عبد القادر المبروكي! هذا اسمي.»، هامسا لي ضاحكا: «واحسبْ عمري عشرين مرتين!»

اليوم، صار الوداد يقدم وجبات سلف سارفيس، في شارع بن أحمد الهواري (أوزانام، سابقا) على مرور هذا أو ذاك أمام بابه ممن تبقى من مرتادين كانوا يشربون فيه قهوة البْراسْ الخفيفة والثقيلة على الكونتوار أو جالسين إلى طاولات بكراسٍ خشبية عتيقة يتفرجون، في الركن الأيمن إلى المدخل، على نِزالِ معقّد الاحتمالات والحسابات في لعبة الدامّة بين شيخين من شيوخها، أو يدخنون ويستذكرون أيام حرب التحرير في وهران.

ففي خلال ساعات تَوَهاني عن الثانوية، كنت أتسكع في شارع العربي بن مهيدي. أتفقد، على الرصيفين، جديدَ واجهات الملابس من التشكيلات الجديدة. وعند بهو قاعة السينماتيك المغلق غالبا، كنت أتسمر. أقرأ برامج عروض سابقة. وأتأمل وجوه بطلات وأبطال لملصقات أفلام متقادمة، نادرا ما تجددت. وغالبا ما كنت كسرت الشارع إلى الأسفل نحو رصيف سوق ميشلي (سابقا) فوقفت على بقايا بائعي الورد أتأمل حذق هذا أو ذاك في تهيئة السيقان ورصف الباقات. مرة، أجبت أحدهم: «قريبا!»، لما كان سألني بغمز إن أنا أريد زهرة أم باقة كاملة. كنت لا أرى بعدُ كيف سأجرؤ على بختة الشرقي.

وإلى نفوري من الجو الدراسي، زادني ضجري من أعوان لطفي سأماً. كنت لا أراهم، نساء ورجالا، إلا متجهمين خريفَ شتاءَ وربيعاً. تحسبهم

بلا أرواح إذ يدخلون بورقة إثبات الحضور يُمضيها هذا الأستاذ وذاك بروتينية كابسة.

كنت أنا، أظن ذلك الآن، من بين المتسببين في ارتفاع نسبة الغياب في قسم اللغة والأدب في السنة النهائية. بختة الشرقي، كانت في قسم علوم الطبيعة والحياة. قبل امتحان البكالوريا بشهر، تضجّرت لي مرة في الساحة، ولكن من شيء آخر: «أمي، تريد لي أن أكون طبيبة. وأنا أكره دراسة الطب! وأبي، يبغي أن يراني صحافية. قلت لهما: "أحب أن أكون أستاذة جامعية! "» وكانت، قبل ذلك، بين وقت وآخر، في ساحة الثانوية أو أمام باب خروجها خلال انتظارها سائق سيارة والدها، أرتني ما تقرأه من روايات وشعر ومن كتب أخرى، بالفرنسية أيضا. كنا في سنتنا الثانوية الثانية.

فقد أخجلني دائما أني، أكثر من مرة، أعدت لبختة الشرقي هذا الكتاب أو ذاك، مما كانت تعيرني إياه، من الشعر خاصة، من دون أن أكون قرأته كاملا أو أن أكون فتحته إطلاقا! وكانت تحدس ذلك. فتصنّعت لي مرة توبيخا: «الكسول جزاؤه العزْل!» فاشترطت لها: «عن مجتهدة مثلك!» فابتسمت، مصرة على توبيخها: «وأنت تدرس الأدب!؟» وهمست لي: «أحب المتنبي! أستطيع أن أسمعك شعرا له، مثلا!» ثم سلمتني، على ارتباكي، حزمة كتب.

أذكر أني قرأت، من بين تلك الكتب، لتلك العطلة الصيفية، اللاز والبؤساء وعطيل. قلت لها في أول لقاء لنا في بداية سنتنا الأخير في الثانوية،

على تناولنا گاتو ميلفاي وعصير برتقال في محل حلويات وهران، كانت هي التي دعتني إليه، في شارع العربي بن مهيدي: «زيدان، ذبح على قناعته. ولكنه خلّف مسخا هو اللاز الشاهد على دموية النزاع داخل صفوف جبهة التحرير خلال الحرب. وجون فالجون ينتزع التعاطف من الحجر. أما عطيل.. ولكن لما ذا يقتل نفسه؟» فأجابتني، فورا: «الموريسكي، قتلته الغيرة والدسيسة قبل أن يقتل نفسه.» وأومأت إلي بعينيها ويدها الشمالية أن أنتظر، وكانت تعني أن أسمعها: «ما الذي يمنعك أن تكون استثنائيا؟» فتعجبت لها: «في ما ذا؟» فحركت رأسها بعتاب. وهزتني خفيفا من ساعدي: «في أن تكون أنت! أن تثق في الآتي!» فأنكستني لحظة قنوطي، لإحساسي أني لن أكون الذي تريده هي: «لا ألمس جدوى من أي طموح. وحياتي أعيشها لغاية لا أعرفها.» و لم أخبرها أني صرت أتردد على تلك المكتبة، التي كنت سأشتري لها منها ديوان المتنبي.

6

وكان سأمي على درجة شفقتي على كثير من أستاذات الثانوية المرْهقات بأعباء بيوتهن وأطفالهن، مثلما لا يخفى على وجوههن الممسوحة من كل زينة وعلى أيديهن وأظافرهن العارية على آثار الطبشور كأنها الحمض الناخر فيها! فيما كان أكثر الأساتذة يبدون لي آتين من عفْر اليأس.

ضمن القِلة، كان ناصر العوني، مدرس اللغة العربية، أنيقا وجميلا. إذا قرأ نصا شعريًا مقررا، أو استشهد بأبيات أخرى، أرسل صوته عامرا فخما متموجا بعذوبة نغم، كما كان ذلك ذات مرة في درس الغزل.

« لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقِي
وللحب ما لم يبق مني وما بقِي

وما كنت ممن يدخل العشق قلبه
ولكن من يبصر جفونك يعشقِ»

كنت أرى أن مريم بوخانة، مدرسة اللغة الفرنسية، مجنونة بناصر العوني، أكثر مما كنت أنا بها مسحورا. درسها ظل يمنحني في كل حصة لذةً فائقة العذوبة تسري في حواسي بما صورته لي أحلام يقظتي عنها أمامي قريبةً أكثر على المصطبة بعيدةً جدا على خشبة مسرح تؤدي دور الغاوية تجاه غيري. فافتعلت هذا السبب أو ذاك لأدنو منها بقدر ما أشم رائحة عطرها. كان ذلك يرميني في سرير مائيّ مفروش بالزهر – حدث مرة أن أصابني دوار مفاجئ تهاويت على إثره. فقد مرت علي دقائق قبل أن أفيق في مَـمْرضة الثانوية من غير أن أدري لما ذا. الآن أعرف أني كنت بلغت الاغتلام.

كل شيء في مريم بوخانة كان خفيفا حشوما كتوما، ولكنْ فاقعاً بالفتنة. كنت أحس نبضات نهديها، عند كل حركة لها على المصطبة وكل شهقة وزفرة، ارتدادات زلزال تهز جسدي! بعض عطر أمي لا يزال يثيرني بالتذكار.

كنت أسرح لدى وقوفي في جانب من ساحة الثانوية، خلال الحركة، لأتابع مريم وناصر، حين يلتقيان للحظةِ تقاطعٍ أو يخرجان أو يدخلان معا. وكنت أحيانا أرى بعض زملائهما، في القسَم خاصة، انتبهوا إليهما. وتهامسوا عليهما، من هذا الركن أو ذاك أو من خلف زجاج نافذتَي قاعة الأساتذة.

فمن دون خلْق الثانوية أجمعين، كانت مريم وناصر هما مَن شدّا خيط دراستي حتى النهاية. بل كانا من شرّباني حلماً، بأني قد أصبح مثلهما أستاذا، تبدد يوم وجدت نفسي في كلية الحقوق.

يوم قاطعتهما في شارع خميستي، ماشيا في اتجاه البحر، ولم يكونا انتبها إلي، أحسست جسدي، من غبطتي إياهما، مُسخ فراشة رقّصتها أنوار تلك العشية المزدحمة بالمتدفقين على وهران في عطلة الربيع. تسمرت لحظة. استدرت. وكما في انجذاب، مشيت خلفهما بفاصل راجلٍ بيني وبينهما، واثقا من أنهما لن يلتفتا لن يغيرا الرصيف.

كانا يسيران، زندا لزند، يمينها في شِماله. هو، في جاكتة جلدية قهوية وقميص مربعات أحمر وسروال قطيفة أكحل. كان لون حذائه بنيا، من النوع الإيطالي المعروض بالحبة في حوانيت الطرباندو بسوق المدينة الجديدة. وهي، كنجمة سينمائية معشوقة لي، في طايورْ بنفسجي على مقاس خالب، استعرض لجسدها كل ثنيات أنوثتها. كانت بحذاء أسود من نوع البوتْ، أعطى كعبه غير العالي ردفيها إيقاعا راقصا، بين طرفه المحكم على بطة ساقها العامرة وبين نهاية الجيپة فوق مفصل ركبتها جوربان عسليا اللون. مثلَ هدهدة عزف أرْجحت قلبي، كان تناغمُ حركة محفظتها اليدوية في شِمالها مع كتفيها المبتهجتين بشعرها الأسود المسدل عليهما في تسريحة معقوفة الحواف إلى الداخل.

من فرط غبطتي، رأيتني صرتُ روحاً سكن وهران قبل أن أولد. عند

باب البريد المركزي، نزلت. صعدتُ بالخلف درجاته. رفعت يدي. توقف سيل السيارات. نزل ركابها.

احتشد المارون في ساحة المغرب العربي (لاباستي، سابقا) حتى حدود كنيسة الروح القدس المخرس بابها، على تذكار تفجيرٍ في ليلة صيفية كان شتت أشلاءً جسديْ أسقفها كلافيري ومحمد سائقه الشخصي.

وأطل من النوافذ نزلاء الفندق الكبير. ونهض الجالسون على المقاعد الحديدية العمومية، التي اجتثت اليوم. وتطلعوا مثل الواقفين تحت الأشجار المحيطة وعند الحوض وبين النخلات الست الباسقات – من أين للنخل أن يسكن وهران فكيف يثمر إذاً في رطوبتها طلْعاً؟ وعند الأكشاك الأربعة، كأبراج رُكْنية لحصن اندثرت أسواره: نساء ورجالا، فتيانا وصبايا بأعمار متفتحة وأخرى آيلةً إلى ذبول، في أزياء ربيعية وأخرى لا تزال تحمل آثار شتاء المدينة الساحلي.

واحتشد، على دهشة، باعةُ سوق لاباستي (سابقا) في فم شارعهم الأوراس (حاليا)، يتقدمهم بائع أُكْلة الكرنتيتة الشهير.

ومن شرفات بناية وهران بويلدينغ أطلت وجوه عتيقة لأزواج من بقايا الأقدام السوداء. تحتها، من حانة فالوريس (سابقا)، خرج بكؤوس قهوتهم المعصورة مَن تبقى من زبائن كانوا، قبل حوالي ثلث قرن، شبابا وكهولا متوثبين يحتسون البيرة فيها مع القَطعة بالمرقاز والدولمة والعِصبان والسردينة المِشوية والبصل والليم أو يشربون الپاستيس مع الكَمْية بالحمص والفول والببّوش بالملح والكمون وأنواع زيتون السيقية

الملحّم بألوانه الخضراء والسوداء والبنفسجية خاصة. أو هذا الشراب أو ذاك مع هذه القَطعة أو تلك الكَمْية.

وفي الزاوية المقابلة، نظراء لهم في حانة النُّسير (سابقا، المغلقة حاليا لتحويلها)، حملوا في أيديهم قهوة أو عصيرا أو قرعة سعيدة صغيرة، مثلهم كانوا يرفعون كئوسا أخرى، بشراب آخر، أنخابا لأيام أفراح غيّبها أفول زمانهم وخذلتهم فيها شيخوختهم – فإن عبدقا النڤريطو لم يكن حدّثني إلا قليلا مما يُبكي قلبه على زمن وهران.

وساح صوتي، كأنه صوتهم جميعا.

« يا (حزني) على ولاد الحمري
ولاد المدينة و سيدي الهواري

فرددوا جميعا، كأنهم إياي وحدي.

« وهرانْ وهرانْ
رحتي خْسارة
هجروا منك ناس شْطارة »

فصعدت مريم وناصر، نجمين يطآن أدراج بساط المجد الأحمر. فانفتحت نوافذ بناية البريد العلْوية فخرج سرب حمام. وفوقها، في الوسط، دقت ساعتها ثلاثا – لكنها اليوم أمست معطلة.

حتى إذا كنت أضعت مريم وناصر، وسط الزحام فتوقفت، تصورتهما

خلوَا إلى بعضهما متحاضنين منصهرين جسدا في جسد. لحظتها، توجعت. رأيت ظلا لبختة الشرڤي مر واختفى.

ليلا، كنت وقفت أمام مرآتي. تفحصت ملامحي من جديد. عصرت عيني. خللت بأصابعي شعري. رددته إلى الخلف، حدّ أن توهّمْتني الأستاذ ناصر تهيأ متعطرا لاستقبال الأستاذة مريم. فأثار ذلك في قلبي رغبة صماء في البكاء. لم أدر على ما ذا بالضبط؟ ليس على أبي، فإن وجه أمي سنا في خاطري بأمارات عجزها عن الرد على صفعته الصاعقة. كنت سمعتها من غرفتها نبّهتني أني تأخرت عن النوم.

الفصل الثاني

1

غداة طردي من الجامعة، أستعيد ذلك مغصوصاً، لم تكن أمي أبدت لي أن خاطرها تصدع. فقد حسبتُ، حتى لا تفزعني بذلك كما اعتقدتُ، أنها أمسكت على مشاعرها أنْ لا يتظاهر شيء منها على جسدها الوادع.

غير أنها، وكنت استلقيت في سريري بملابسي وحذائي مواربا باب غرفتي ضائعا في ظلمة نفقي، لم تقاوم شهقة غبْنها، متناهية إلي من البهو، حيث كانت جالسة قربي على السداري الثاني، كما كانت حسنية ستجلس عليه يوما.

سمعتها سألت ربها ما ذا فعلتْ تحت سمائه حتى يتحرّش بها زمانها على ما كان بقي لها في دنياها: أنا. ويقطّعَ أوصال حياتها. كان ذلك من

بين ما كظمتْه لما أخبرتها أن مجلس التأديب شطب اسمي من قائمة طلبة معهد الحقوق وأقرّ طردي من الجامعة.

كان لانكسار خطوات أمي، نحو غرفتها، أزيزُ قضْقضةِ انهيار في وجداني. ظللت لا أخطئ رسم اتجاه حركتها أيضا نحو المطبخ والبهو أو الحمام والكنيف. ففيما أنا موجوع بندوبِ كبْوتي الدراسية أتحسسها في عقلي وروحي وفي جسدي، ها قد عادت أدراجها فدخلت علي. كان في عينيها بقية من دمعة، شارةً للضياع. استقمتُ. واجهتني، معاندة الوقفة. وبصرامة نبرتها، كما كانت لوالدي يوم دفعني إلى داخل المدرسة، حصرتْ ظهري إلى جداري الأخير: «هواري، أنا مريضة. أنت لازم تفكر في حياتك.»

ثمة، أدركت كم كان أشقاها أن تتخيلني بقيت وحيدا! فازداد ما حولي سوَادية.

أياما من قبل، كنت لاحظت أن أمي أمست عاجزة عن تَحمّل صداعها، شادة عليه بفولارة على جبهتها وصدغيها. ثم أضحت لا توقف، إلا بالكمادات المثلجة، موجات عرق حُمّاها كلما اجتاحتها.

فبكبرياء، عزت لي أوجاع مفاصلها إلى بداية روماتيزم. ولم تقتنع لي، برغم ذلك، بأنْ تُخضع نفسها لإجراء كشف تحليلي شامل. ومميلا جانبي الأيمن كله نحوها على السداري الأول، حذرتها من تأثيرات الإفراط في تناول البراسيتامول والأسبرين ونوزيكالم على كليتيها وكبدها. وما كنت رددتُ آلام بطنها، أيضا، إلا إلى مثل تلك التأثيرات الجانبية.

غير أن أعراض مرضها، باستمرار الحمى وموجات العرق وأفول آثار البهاء عن وجهها وظهور تورمات صغيرة تحت الجلد أسفل أذنيها، كانت تفاقمت.

فعلى حيرتي، راحت تفقد بشكل متسارع وزنها. هي التي ظلت في ناظري مثال امرأة حلمتُ بأن أعرفها بقوامها البالغ سبعين طولا وخمسة وستين وزنا، كما قدّرتُ.

لم أكن قصدت أن أتصنّع لها استعطافا حتى تطاوعني، إنما هو انفعالي الشرس تجاه عجزي عن إدراك ما جعلها تتلكأ، لما نطقت لها بجفاف في كلماتي أني أتعذب لرؤيتها على تلك الحال. حينها فقط، قامت.

فلا تزال بي رغبة جارحة في أن أعرف كيف رأى الطبيب وجهي تحول، وهو يعلن إلي أن أمي عليلة. أو، هل كان سبَر درجة حيرتي الضارية إذ راح يعرض علي نتائج التحليل متأسفا بأن جسدها لم يعد قادرا سوى على إنتاج حوالي مائتي خلية من تلك التي كانت تكفل له حصانته. هكذا قد أكون سمعتُ.

لم يَسعني غير سكوتي. استوعبتُ الرجة قوّضتْ في كياني سندي الوحيد. أمي التي تحملت جميع أوجاعي بصبر، بصمْتها، بتناغم ذلك الجسد الأسيل. كانت على هشاشة جوانية فاتنة. وأشعرتني بأمان راسٍ ثبّت خطواتي خارجا من البيت أو عائدا إليه. وحصّنتني بوجودها قربي وفي إحساسي. وظلت سدْلا عوضني عن أي لباس لحجب ضياعي. كانت ملجئي إليها من هول يتمي ولعنة إخفاقي.

فقد كان للطبيب أنْ أضاف، ببرودة، ناظرا إلى الكشف بين يديه، أن فيروس نقص المناعة البشرية هو السبب. وأن تدميره بلغ مستوى نهائيا. أحسست الحكم الطبي حزة مشْرط جذّ حبلي إلى أمي فانفصلنا متباعدين هاويين في سديم لانهائي.

إذ كنت أخبرتها بالنتائج، كما أحببتُ أن تسمعها مني، تصدّتْ لانفعالها بعناد. ورصدتني كيف خللت أصابع يديّ في بعضها، ممسكا على رجفتهما. وتشوّفتْ إلي من بُعد بعيد كأنه، بل هو، من لحظة نظرتها إلي يوم وضعوني في حضنها عقِب صرختي الأولى. لا ريب! التاريخ الأمومي يُفشي إليك ذلك.

فبكامل عجزي، طمأنتها على أنه مجرد مرض يصيب الدم يتطلب علاجا خاصا مركزا. ضغطتْ شهقتها. لكن صدرها كله ارتج وانسحبت عيناها إلى فراغ. لم تخذلني دمعتي. كان ذلك، لو حدث، خرّب ما كان بقي في روح أمي. أصررت على أن تراني الرجل الذي أحبت أن تغادر الدنيا على صورته الواثقة. شيء ما، إذاً، في غوري كان ثار، منعني أن أشقيها بتظاهر ضعفي.

فقد اكتفت، على استسلام، بهزة من رأسها، أنها تدرك ذلك. كان شعرها بدأت تضيع له نصاعة صُهبته، كم خلبتني فيه كلما رأيتها قد سرّحته صباحا ولفته بخمار شاميّ، كيفما كان لونه أسبغ على وجهها زينة ندية، ثم غادرت إلى العمل!

وحركت شفتيها، إذ أتذكر إزهارهما تحرق صدري حسرةٌ جديدة

على ذبولهما، أنه لا بد سرطان. كنت أردت لها، كما تمنيت، أن لا تعلم أن النكبة أشد فداحة من مجرد سرطان. فإني لن أعرف أبدا إن كانت ماشتني في ما قرّبتُه لها من تلك النتائج فافتعلت لي أنها تجهل سبب مرضها.

ذهبتْ أمي. ما الذي يفيد أن أهوّن على نفسي بأنها لم تكن تعلم فعلا. عاندتُ أن لا تحمل معها إلى قبرها أني اكتشفت عنها جرح العار. لا أتصور أحدا كان سيرحمها. لا الذي لوّثها. لا الذي عرفها. ولا من كانوا قاموا وراء من صلى عليها في العين البيضاء لتدفن. أنا الوحيد، في دنيا الإله، من كان سيشفق على حالها. وسأظل الوحيد من لن يدينها، أبدا.

وأياً ما كان تقديري، فإني وجدت أنها العناية وحدها هي التي أنطقتها أنه لا بد سرطان. فَهُيئ لي ولها أن نتجنب النظر إلى بعضنا بعين ذنْب، طيلة ما كان تبقى من أيام تقاسمناها إلى آخر دقيقة.

لم أنتظر منها أبدا أن تحاول، إن هي اخترقتْ حاجز صمتها، أن تبوح لي بسرها مع مَن مِن الرجال تكون غفلت عن وقاية جسدها. لم تقل صراحةً، وكنت أبغي أن تُقْدم على ذلك بأي شكل، إذ سلمتني مفتاح صندوقها، ليلةً قبل وفاتها في المستشفى الجامعي، الذي كنت نقلتها إليه، مغشياً عليها، لأنها كانت رفضت لي بقطعية الخروج مرة أخرى إلى أي عيادة أو مخبر تحليل. لم أدر ما الذي أكرهنيً على أن أجحد في مصلحة الاستعجالات، وبذلك التصميم مني، كلَّ علم لي بعلة مرضها. وأكدتُ أنها لم تخضع لأي فحوص أو تحاليل أو أشعة. وصرحتُ أنها كانت تتناول مسكنات للصداع وآلام المفاصل، وأخرى لنوبات الغثيان.

فكل ما أطاقته أمي، في لحظة من لحظات إفاقتها من غيبوبتها، أنها همست لي بأني أجد في درج صوان غرفة نومها مبلغا ماليا للضرورة. وأمالت وجهها عني شمالا على الوسادة، مفسحة لدمعة يتيمة، تحاشياً أن تواجهني. كانت تلك رغبتها الأخيرة. إنها قناعتي الآن. ونطقت بصفاء، لم أعهده في حنجرتها منذ مَهْواها إلى قاع اعتلالها، أن السيد عاشور بونعايم مدير عملها كان معها عادلا وسخيا. وأنه لن يرفض لي شيئا إن أنا قصدته. ثم توجعت رادة جبهتها نحوي، واقفا عن يمينها. ومدت لي يدها. فأمسكتها ملتهبة. فضغطتْها في وهْن. وزفرت، مغمضة غمضتها الأخيرة.

لا شيء، لا أحد كان يمكنه أن يواسيني بأن ذلك كان أجلَها المسمى!

في تلك الليلة الباردة من بداية العام الجديد، لم أندم على أني لم أسأل أمي عن علامة واحدة تدلني على قبر والدي. فهل كنت سأقف عليه؟ الآن، أدعي أنها لم تكن تريد أن تعرف مكانه، أصلا.

2

أمام بابي، في خمارها الأسود، تأست لي بختة الشرقي: «تيتمتَ. طُردتَ من الجامعة. وها أنت تفقد أمك. يا لظلم هذه الدنيا!» لم تكن عرفت أمي، ولا أمي عرفتها. فأنا لم أدعها يوما إلى البيت. ظل في ذهني أن تدخله طاهرة. «أنت لازم تفكر في حياتك»، هي التي، مثل وصية، رسّبت في شعوري تلك القناعة.

وأسندت قلبي، ببحة تأثُّرها: «أنا صديقتك. أنت تعرف أنك تستطيع أن تعتمد علي.»، لما تزلْ كلماتها ضمادات لرضوضي جراء محنتي.

كنت سأدعوها إلى الدخول لما سبقت، طالبة أن أسمح لها بالانصراف. ونزعت نظارتها السوداء، أيضا: «وجئت لأطمئن عليك!»

كان عبدقا النڤريطو هو الذي دق علي: «قالت إنها صديقة، جاءت تعزيك.»

وكان هو الذي، في اليوم الأول من المأتم، جلب المقاعد الجماعية من المدرسة المجاورة. ونصب الڤيطون في ساحة العمارة لاستقبال المعزين الباحثين عن الأجر ومن الجيران الذين كانوا أخرجوا صينيات القهوة والشاي وگاتو لامونة خلال الصبيحة والكسكس وقت الغداء والعشاء. وفتَح صالة بيته للنساء اللائي لم يجدن من يعزين غير زوجته عَيْشة.

كنت غالبا بجنبه، على شعور أنه من أقاربي، إذ أتلقى التعزية ممن لا أعرفهم. وكم كانوا كثيرين! وهو الذي، مثل مكلف بالبروتوكول، قدم لي هذا المعزي أو ذاك. وعرّفني على احميدة الكلوندستان. وأوصاه بضمان تنقلاتي حيثما أردت، إلى المقبرة خاصة.

وكان قاديرو، صاحب طابْلة الدخان نفسه، قام على وضع الموائد والصينيات ورفْعها وتقديم الشراب والطعام في تلك الأوقات. وبثّ القرآن من مسجلة أحضرها. كنت أعطيته شريط سورة الكهف بتجويد عبد الباسط. قال لي: «أحببت من القرآن كله قصصَه.» فقلت له: «وأنا أحب هذه القصة.»

في صباح اليوم الثالث، كنت قدمت لعبدقا النڤريطو، من المبلغ الذي وجدته في درج صوان غرفة نوم أمي، ما قدّرت أنه يكفي لشراء خروف مسلوخ وما يلزم من الكسكس ومستلزمات تحضيره، قائلا له: «صدقة الفروق من مال الوالدة. ادعُ الجيران جميعا إلى العشاء.» كما

كنت قدمت له لاحقا تكلفة القبرية. ومن المال نفسه سبق أن أخذت ما واجهت به تكاليف التغسيل والكفن والتابوت ونقل الجثمان حتى مقبرة العين البيضاء.

فإنه طمأنني أيضا على أن زوجته عيشة، مع جارة أخرى، ستتكفل بتحضير العشاء. فذكّرته: «لا تنس الطُّلْبة!» فرد، بإيماءة ابتذال مرافقة: «يِجُو وحدهم، كما جاو البارح ولُولْ بارح!» فقد كانوا فعلا تلاحقوا بعد المغرب وقرأوا على فترات متقطعة، للاستراحة وتمكين الحاضرين من استئناف الحديث والحركة أو إشعال سيجارة بعيدا عن الڤيطون. فكل الدعوات لأمي بالرحمة ولي بالفلاح، التي رفعها من فتّح في آخر كل ليلة، وكان هو رئيسهم هم الخمسة، وجدتها كانت على درجة المبلغ المالي الذي سخوت به عليهم.

كما كان عبدقا النڤريطو طلب إلي، صبيحة اليوم الرابع من المأتم، بعد أن فكك الڤيطون وأرجع المقاعد، أن أكتب له اسم أمي الكامل وتاريخ ميلادها. وأفهمني أنه لحفرهما على شاهدة القبرية، التي وعدني بأنها ستكون من الڤرانيطو الجيد. ففعلت.

إذ وقف جنبي على قبرها، في صباح سابع يوم من وفاتها، وكنت قمت من تلاوة عليها، مسَح براحته على ما حُفر في الشاهدة بخط مغربي قديم ذي لون أسود.

الله أكبر

"كل نفس ذائقة الموت"

هذا قبر المغفور لها

وهيبة بوذراع

2006 - 1963

ادعوا لها بالرحمة

ونظر إلي. فهززت له رأسي، امتنانا: «ربي يجازيك!»

3

صبيحة أربعينية أمي، كنت، وبما يُوجبه اللطف تجاه إرث مبجّل، وضعت صندوقها المعدني فوق طاولة البهو، هذه، جالسا على السداري الأول، تحت نظر مائة عين أحاطت بي، توهمتها لمن كانوا عرفوا أمي وعرفتهم أو من ودّوا لو أنهم عرفوها، سريعا ما طاردتها عينا والدي إذ شعرت بهما في ظهري فالتفتُّ فخلت كأن ظلا لصورة وجهه الأخيرة امتصها الجدار.

لما فتحت، غمرني انبعاث غريب كان من رائحة عود القرنفل المنثور ومن بقية عطر قديم من قارورتين صغيرتين هما من تذكارات جدتي، ليس غيرها. فقوارير عطور أمي كان المعروض منها فوق صوان غرفة نومها أصغر حجما وأقل مما كان على مرفع حمامنا المشترك. وكانت كلها من مستخلصات طبيعية بلا كحول.

أذكر أني أهديت بختة الشرقي إحداها فاندهشت لي من غلاء ثمنها، كما هي تعرف. شيء واحد كان دفعني إلى فعل ذلك: أن أشم فيها رائحة أمي. وصحيح! رجوتها أن تتطيّب من ذاك العطر كلما كان لا بد أن نلتقي. وكم جعل القدر بشحه مواعيدَنا نادرة! على شاطئ الأندلسيات كانت، تحت الشماسية بجنبي خلال صيفنا الأول الذي أعقب خروجي من السجن، رذّذتْ من القارورة رذة خفيفة جدا عند معصمها. وحكت، أكثر خفة، بذؤابة أنفها. واستنشقت. ثم بطرف سبابتها دعكت. كنت قدرتُ، وذلك ما فعلتْه، أنها سترسل لمستين تحت أذنيها. جلبتُ كفها إلى شفتَيّ وسهوتُ في عذوبة.

إلى اليوم، ما فتحت خزنة أمي على ملابسها الداخلية المستعملة منها خاصة، لأني كنت أيضا سلمت غيرها هي وأحذيتها إلى عبدقا النفريطو لزوجته، إلا استيقظت لي منها رائحة جسدها، مثلها مثل طقمها من الذهب الخالص: أساوِر من نوع مْسيبْعات وسلسلة رقبة وخواتم وأقراط وحزام، مرتبة فوق خمار وردي. وحومتني نشوة في غيم طفولتي المفقودة. وداعبت بشكيريها وسرابيتها فاستنشقت، مرة أخرى، أرجَ نعومة كانت لبشرتها. وإلى الآن لا تزال تكتسحتني تخميناتي الطاغية عن أي يد، أيادٍ، التهبت عليها، وشفاه تحرّقت. آه، كثيرا ما كنت استرقت إليها نظرة وأخرى إذ تتحرك في البيت في لباس خفيف أو قصير، فأصابتني غيرة مجنونة عليها لتَخيُّلي كم رجلٍ فتَنتْه!

فبرعشة، سنت في عظامي، كما من أثَر رهبةٍ لكشف سر، أخرجت من

الصندوق دفترا عائليا رمادي اللون، لم أكن رأيته من قبل. على صفحته الثانية، شمالا نحو يمين.

الزوج.

اللقب: صفصاف

الاسم: معمر

وُلد عام: 1960 في: المالح

ابن: صفصاف مرزوف وبوحجيرة ستي

معاودا قراءة الاسمين، مستحضرا إن كانت أمي يوما نطقت أحدهما. فطنّ في أذنَيّ صدى فراغ. فعلا! فأنا ملوث الجسد بجينات جدّين، مثل أي جدين آخرين، مهملين في تعداد البشرية!

إذ عاينت خواء فقرة مستخرج عقد الوفاة فغرَتْ عليّ مسافة القفْر المشقية التي قطعتها أمي بلا زوج قيّم في حياتها. واحتل ذهني تأويل واحد، قطع عني تخمين ذريعة أخرى: لا بد أن أمي كان أخجلها أن تسعى إلى تقييد قتيل على يد قوى أمن دولته.

فما زلت لا أعلم كيف كانت تُحصّل لي من بلدة المالح، حيث ولد أبي لا حيث قُتل، عقدَ وفاته لملفاتي الدراسية الإكمالية والثانوية وحتى لدى دخولي الجامعة. كان يكفيني أن أطلب إليها نسخة لتكون بين يدي بعد يوم أو يومين.

الآن أتخيل، ممضوضا، حالها أمام الموظف الإداري ألقى إليها نظرة تشفٍّ. أو، غمزة تَحرّش! بل، إيماءة مراودة.

لم أحس نزول دمعتي لولا أنها انفجرت على صفحة مستخرج عقد الزواج. لم أمسحها. تركت للورقة شأنها. كانت بكمية ما ينكتب اسم والدي وتاريخ قتْله ويَفْضل منها ما يُندي دمغة الإدارة.

مستخرج عقد الزواج رقم 1

الزوجة الأولى

اللقب: بوذراع

الاسم: وهيبة

ولدت يوم: الثلاثاء 31 ديسمبر، عام: 1963، في تيموشنت

ابنة: العربي. و: شريف العارم.

أمي، أنا!

كأني اكتشفت أنها تزوجت، ناسيا لحين أني دليل إحصانها. تفكرت أني كنت من سيتوجه إلى مصلحة الحالة المدنية لاستخراج نسخة من عقد وفاتها حتى أطمئن – فكذلك كنت فعلت. وثمة، قبل أن أتراجع، أغراني أن أسأل موظف مكتب التجنيد، قرب مكاتب الحالة المدنية، لم لَم يتم استدعائي لتأدية الخدمة العسكرية. ولكني نطقت لنفسي أكثَر مما له هو، أتأمله من خلف العازل الزجاجي داكا رأسه في أوراقه، أن

نفسي لم تسوّل لي أبدا الانتقام لوالد اعتبرتُه مخطئا في حق بريء. ورأيت نزاعه، إن كان، مع نظام دولته أمرا خصه هو. ولا عبَر خاطري أن أتمرد على بيان وزارة الدفاع. إنما كل شيء في حياتي يتم فَوق إرادتي وضد رغباتي ويعرضني إلى هذا الضياع. فرفع إلي رأسه وقطّب بما أفهمني أنه غير مستعد لسماع شخص أخرق. ونشّ نحوي بأصابعه، كما على ذبابة، أن أبتعد.

في الفقرة الثانية.

سجل في 6 أكتوبر 1986 تبعا لعقد الزواج بتاريخ 5 مارس 1986 أمام قاضي محكمة وهران.

أربكني التاريخان، للحظة. كان يجب أن أولد، لا لأكون لأبويّ فخرا ولكن مصدر إحراج مدني لهما على طبيعة علاقتهما. ميلادي كان، إذاً، الحديد الذي أجبرهما قدرهما على مقاسمته قدماً بقَدم.

وخزةً بعد أخرى، في قلبي، كذلك أحسست نقلة عينَيّ من صفحة لأخرى، بحثا عن تقييد آخر. لا شيء كان غير أثر خطيّ من حياة عابرة لأبوين أخرجاني إلى هذا العالم ثم غادراه، كلٌّ على فجيعته.

وورّقت الصفحات الفارغة، للزوجة الثانية والثالثة والرابعة، إلى صفحة مستخرج عقد ميلاد الطفل الأول.

يوم: الأحد 05 أكتوبر. عام: 1986 ولد: صفصاف هواري

الجنس: ذكر

فاقشعر جلدي، لرؤية نفسي انقذفت من رحم أمي مضمخا بأرديتها الدامية. من كانت قابلة أمي؟ لا أذكر وجه من خترنني. ولا وجع الحزة. ولا صيحتي.

فأنا هو، إذاً، هذا المخلوق الذي أجاءته إلى وجوده نزوة أبوين مبربجين، مثل حيوانين، لإعادة إنتاجهما. فأي نصف مني من هذا الجسد هو لأمي والآخر لأبي، أي نسبة؟ وما عشت إلا بإحساس أني كُلي لأمي.

وهو أنا، إذاً، من يتحمل تبعات هذا الشقاء أني قَتلتُ، ليس كما قتَل أبي فقُتل، وأني زنيت وعصيت؟

اسم الأم: بوذراع وهيبة.

على خواء بقية الأوراق، حتى صفحة الطفل العشرين، أخطل ذهني سؤال الأربع زوجات والعشرين ولدا في دفتر عائلي واحد. كان يمكن لوالدي، إذاً، أن يجمع بين أربع أمهات فأضيع أنا بين خلْق كثير من أبنائه وبناته، فلا يكون لي ملجأ إلا إلى أمي.

اليومَ، في هذه العزلة، يملأني يقين أليم بأن والدي لم يكن فكر في أمي يرميها، وإياي، في عامها الحادي والثلاثين شابة جميلة إلى شقاوة هذه الدنيا، إذ انتظر في تلك الساعة الصباحية من يوم ثلاثاء، كان موعدا لاغتيالات طالت صحفيين وكتابا وفنانين ومدرسين، أن يخرج المدير من بيته ليشتري بقتله مقاما له في جنة ربه.

وإنْ أرّقني أن يكون هو قاتلَ مدير مدرستي فإني لم أجحده أباً لي،

أبدا. ذلك كان ابتلائي في قدرتي على الفصل بين أُبوته لي وبين إدانتي لفعله. فما فتئ يرهق روحي منه أنْ قبِل بإرادته، أو بإيعاز هو وحده من يزر وزْره، أن يقترف ذلك في حق بريء أعزل.

يقيناً أن أساسات أبي، التي اعتقدها عمَدت إيمانه في هذا الوجود، كانت هشة جدا. انهارت تماما، عند لحظة تصويبه مسدسه إلى رأس المدير. وأن بدنه كان تصدع وهو يرى ضحيته يهوي جميلا على سؤال: «لما ذا تقتلني؟» وأن شبحه وحده هو الذي كان انسلخ نحو السيارة المتأهبة للإقلاع. وأن روحه أقعدتْه حيرةُ السؤال عند رأس القتيل. وأنه تلاشى بتلقّيه زخة رشاش في الصدر، لحظة الاشتباك مع فرقة الروجي، والد بختة الشرقي.

أبي كان أنانيا. مات خطّاء.

4

ومن حافظة ملفات، كنت أخرجت عقد شراء شقتنا موثقا في مكتب الأستاذ هاشوري. لم أنشغل كثيرا بمصدر المال المدفوع. فإنه لم يكن أصبح سرا أن الجماعة قدّمت لعائلات قتلاها والمحبوسين من صفوفها المحكوم عليهم بالإعدام والمؤبد تعويضات في شكل ديات نقداً. أو أشركت ذويهم في مشاريع تجارة الجملة وبيع الذهب ونقل البضائع والمسافرين والاستيراد والمناولة. وأجّرت لهم محلات. واشترت لهم مساكن مثلما كانت حال أمي، كما كنت سأعرف.

فإني شُدهت مما كنت قرأته في تقرير أمني سري بالأسماء والأمكنة وطبيعة المشاريع وأنواع النشاط التجاري، سربت لي نسخةً منه بخفة الشرقي في مطعم النجم المذنب، الذي كنت دعوتها إليه. قالت لي:

«احببت فقط أن أطلعك على جانب واحد من عمليات تبييض المال الوسخ.» كان آتيا من غنائم الجماعات المسلحة ومن بارونات التهريب على الحدود ومن ابتزاز مسئولين في الأمن ومن اختلاسات الموظفين الكبار ومن رِشى مسئولين في العدالة. وقالت لي إن كثيرا ممن يتولون في الظاهر التجارة الكبرى والتعاملات ليسوا سوى مسخرين لأشخاص آخرين ذوي نفوذ يديرون كل شيء عن بعد.

فإني وجدت، مرفقا بالتقرير، نسخة من وثيقة لعملية شراء شقتنا، تتضمن أسماء كل من الشخص الذي حسب عقد الملكية باع لأمي، ومن دفع له بدلها، والشاهدين، ومن أدى للموثق أعباء التسجيل. فهي لم تكن تملك تكلفة ذلك كله. ومن استرد، نيابة عنها، نسبة الخمس من مبلغ الشراء المودعة رهناً لدى مصالح الضرائب.

فالشاهدان كانا من منطقة المدِيّة. والبائع توفي، وهو من مدينة الشلف. والذي استرجع مبلغ الإيداع هو شخص من مدينة غليزان، يوجد في حالة فرار من العدالة.

كانت بختة الشرقي تأسفت لي، على مزاج رائق: «الجمبري لذيذ. كلْ! من اشتروا لأمك شقة في عمارة بنوا لأنفسهم، بدم أمثال أبيك وضحاياهم، قصورا صارخة البذخ في الضاحيتين الغربية والشرقية.» فهونت على نفسي، لإحساسي بقلق على معرفة ما في الملف، ممازحا إياها أني سخّرت عبدقا النفريطو في مشروع بدأ يدر علي ما أبني به قصري أنا أيضا. وقشرت لها من صحني حبة جمبري قضمت منها، ناظرة إلي،

من تحت جبهتها الصافية، بمكر من تعرف عني أكثر مما أعرفه عن نفسي، ساخرة: «بزوج دنانير تاعْ للي خطرة تجيب وخطرة تخيب؟»

ثم كانت واجهتني بنبرة عتاب، على صمتي: «هواري، أحب أن أساعدك، فعلا. والدي يملك على كثير من أولئك الكلاب ملفات يستطيع بها أن يبتزهم ما يشاء. اقترحْ علي ما تنوي فعله وأنا أضمن لك التمويل أو الشراكة.» فحضنت يدها: «ساعديني باهش نبغيك، فقط.» فاغتسلت حدقتاها. فأغمضتُ، على شوق إلى أمي سرى لوعة في صدري.

ومن غير دهشة، كنت سحبت من الصندوق أيضا ظرفا متوسط الحجم غير مغلق ممتلئا أوراقا نقدية من فئة الألف دينار. لم تتحرك لي رغبة في أن أحسبه. كل ما استطعته أني راضيت نفسي، من غير أن ترضى، بأنه من مدّخرات أمي. واستبعدت أن يكون بقيةَ دية. فقد كان يجب أن ألقى حلّومة لتطلعني على مصدره. وفي اللحظة، فكّرت في عبدقا النڤريطو، لم لا أشركه في مشروع يخرجه من حاله التعيسة؟

اليومَ، صار عبد القادر المبروكي، كلما التقينا نهاية كل شهر، يسلمني نسبة ربحي، التزاما منه بعقد الشرف بيننا. فدعوته أو دعاني إلى عشاء أو غداء، مظهرا لي ابتهاجا كل مرة دخلنا فيها أحد تلك المطاعم أو البارات في الكورنيش أو على شاطئ الأندلسيات. فقد توهج إذ جلسنا أول مرة في سقيفة حانة ڤوميس، مفتونا بأصوات البحر: «ما فيهش في هذه الدنيا لغة تسحرني كما هذه!» وانتبه إلي، كأنه نسي شيئا: «الليلة، نتعشى على پايْلا في مطعم الكورنيش!»

فإنه لا يزال يسافر، عشية كل خميس وخلال العطل، إلى سوق دبي في مدينة العلْمة ليعود في الحافلة بكراتين من الألبسة التركية والسورية والصينية والإندونيسية يبيعها بالجملة لتجار الرصيف في سوق المدينة الجديدة.

ومن ظرف آخر صغير، أخرجت صورة نصفية بالأسود والأبيض. وأنا أتأمل الوجهين، أخذتني نشوة تحليق إلى زمن عتيق: «جدتي، والدة أمي! هذه هي أنت؟» كانت جميلة القسمات مهيبة الطلعة. هي التي لا شك جرّت جدي. كان ماشطا شعره غير الأسود، كما يبدو، إلى الخلف. فيما شعرها هي مصرصم كثيف نازل في تموّج على كتفيها. لا بد أن يكون أصهب، مثلما هو شعر أمي. ومن أذنيها بدا قرطان كبيران من نوع المناقيش من الذهب، كما السلسلة المضفورة في عنقها الطويل الممتلئ. تحت شفتها السفلى إلى الشمال خانة: «تهبّل!» كذلك همستُ لها. فخلتها تبسمت لي. بل كأني سمعتها: «استنّيتك يا العفريت!» وأظهرتْ يدها من نصف الصورة وأدخلتها صدرها العريض: «خبّيتْ لك حلوى!»، كما يوم أن زرتها أنا وأمي، ولكن لتخرج لي شوكولا سوداء من خزنتها.

أين التقطت صورة جديّ، متى ولما ذا؟ لم يهمني كثيرا أن أعرف. كفاني أني حظيت بتذكار من أيام سعادتهما قبل أن يُبتلَيا في ابنتهما، أمي.

ساحرةٌ جاذبيةُ قعدة جدّي، جنبا لجنب، لا بد على مقعدين بلا مساند، أضاءَا لهدف الآلة بنظرتيهما، مالئين إطار حقْله بوجهين خرافيين نبيلين من عوالم عشق الكبار. تخيلتُ المصور أحس قلبيهما خفقا بأفراح

دنياهما وهو يقبس. كم مرة تبادلا الصورة، نظرا إلى بعضهما أوَجْهاهُما حقا هما إياهما وتبسما وضحكا لبعضهما وتسالما بالقبلات، مثل ثمري وحمامة؟

لم لَم تعلّق أمي صورة جديّ، كما فعلت أنا بصورتها هي بعد أربعينيتها؟ بحثَت لأبي عن صورة، فعلا. ولو صادف أنْ عثرت عليها ضمن أشياء أمي ما كان ليتحرك فِيّ نبضٌ للاحتفاء بها. هكذا أشك.

فحواسي كلها كانت تفتحت على الرائحة نفسها التي شممتها من جدتي العارم. جدي لم أكن رأيته من قبل، أبدا. كان قضى قبلها بعام في مستشفى الأمراض العقلية، المعروفة به بلدة سيدي الشحمي. ودفن في مقبرتها ذاتها التي دفنت فيها هي قرْبه، كما كنت سأعلم، تنفيذاً لوصيتها، بعد أن أجزت هدية سخية لأحد موظفي البلدية بأن تُترك لها مساحة قرب قبر زوجها. قبل ذلك، كنا، أنا وأمي، في عطلة ربيع صادفت سنتي السادسة في المدرسة، أدينا لها زيارة في دارها الكائنة في بلدة سيدي الشحمي، ذاتها. كانت الأولى والأخيرة لي، قبل رحيلها.

ما لم أنسه أن أمي إذ عادت إلى البيت من مراسم عزاء جدتي كانت خزينة، جدا. على قهوة العشوية نظرت إلي عميقا: «بقيت لي أنت!» ذلك ما كنت أحسستها نطقت لي به من خلف صمتها الغائم. فأخفيت عنها شعوري الغامض إلى لحظة أن وضعتُ يدي تحت رأسي على مخدة سريري. يمكن لي الآن أن أترجمه إلى: «أنت الكائنة الدائمة في دمي.» ولاحقت، مذعورا، طيفها نأى عني في سديم رمادي.

الفصل الثالث

1

لم يكن أنساني، لبعض الوقت، في محنة دراستي الجامعية، كما في فجيعة فقداني أمي، سوى هذا اللقاء أو ذاك، مع بختة الشرقي، طالما أحسستها تكبح كل شارة إشفاق على حالي أن تتظاهر فازددت تعلقاً بها. أو مع عبدقا النقريطو، لم ينضب له تعاطف تجاهي: «أنا أيضا وحيد أبوين دفنتهما. أحب أن تكون أخي الصغير.»، لما كان عند مخرج المقبرة أخذ يدي في يده مثل أخ صغير له فعلا.

أما حسنية فكانت، بعد بضعة أشهر من ذلك، إذ ترجع إلي، على انتظار أو صدفة، تغرق في كأسها شجونها، أو في نار سيجارتها تحرقها. أو هي تنفّ نفّات من غبرتها البيضاء لتصعد عني إلى سماء أوهامها.

الآن، على تذكارها، تعاودني رغبة بكاء بقي حبيس صدري. إني أشعر

بالرعشة ذاتها تسري في جسدي، كما لم أشعر بشيء مثلها، إذ طوقتني من خلف، تحت المرش، وعضعضت على سلسلة رقبتي: «هدية؟» فهززت لها رأسي، على خجل من وجه بختة الشرقي أشع ثم توارى. فتنهدتْ. وحرّكتْ، في ظهري، دائريا، نهديها المتعاليين. فغرزت أطراف أصابعي في ردفيها. ضغطتُ. فأهجعتْ للحظات خدَّها الطرية على أسفل كتفي. ثم خللت شعري، هامسة في أذني، بلهفة فاغرة على فقدان، كان ضياعي المنسي أنا: «شعرك حرير. وزينك يهبّلْ!» استدرت. حضنتها، ناعمةَ البشرة لزجةَ الاشتهاء. عضضت على أذنها: «غنيها لي!» زفرتْ. هززتها. شهقتْ. ثارت فيّ بأصابعها وشفتيها وأسنانها وكل مفصل فيها. فافترشنا الزليج، حيث انطَفأنا مرة أخرى نارا بنار. وهي تتوسد صدري العاري، على سريري: «في الميلومان ستسمعني! أدعوك.»

في رمضانها الأخير، وكان الوقت خريفا، جاءتني يوما أصبحتُ فيه علي مزاج معكر. قلت لها: «يا طُفلة، خليني نكمل صيامي!» فأومأت إليّ بأصابع يديها معا إلى ما تحت سرتها، في حركة نفْض: «دمي راه يسيل! ما تخافش.» وقبّلتني. فشعرت بغثيان. ودخلتِ المطبخ: «جيت نحضر لك خْريرة.» فأرسلت إليها: «أنت غير طاهرة، يا نسيمة!» فأطبق بيني وبينها صمت، امتد لزمن ما تخيلت ألم إحساسها بطعنتي. كان عتابها حزينا: «أنت توجعني، دائما. لما ذا تصر على تذكيري بفجيعتي؟ وعدتني بأن لا تعاود.» فعلتُ ذلك كلما كانت أغضبتني أو كان الأمر الذي نتحدث فيه انتزع منا جدية، غالبا ما كانت حول بحثها عن عمل

آخر قار غيرَ عرْض نفسها في هذا الملهى أو ذاك طريدةً لمن قالت لي عنهم إنهم الوحوش الليلية. وكنت مغلق الأفق تماما عن أن أرى لها مخرجا آخر. ودعتني إلى حضور رقمها في ملهى بياريتس، على الشاي والكاوكاو والشامية.

ظلت حسنية حريصة على أن لا يكتشف غيري أنها نسيمة وزاني، اسمها الحقيقي، منذ أن وجدتني، في صبيحة يومها الثاني عندي، أراقب بطاقة هويتها، التي كنت أخرجتها من محفظتها اليدوية لأتأكد. فترجتني أن أناديها بكنيتها التي، كما اعترفت لي، اتخذتها نسبة إلى سيدي الحسني، لتتنسى حي سيدي الجيلالي في مدينة سيدي بلعباس، حيث ولدت وحيث ذاقت ألم أنياب الاغتصاب، قبل انتقالها إلى وهران طالبة جامعية، هرباً من ملاحقة عارها.

كنت أعدت لها بطاقتها. ثم خيّرتها: «الآن، إما أن تخبريني من تكونين وإما أن تخرجي فورا!»، على حدسي أنها تحمل سر الفتيات اللائي يدخلن المدينة غريبات بأسماء مستعارة متنكرات الروح والأثواب فراراً من مطاردة رقيب متربص مترصد عند كل زاوية. كانت لهجتي معها صارمة حقا. أحببت أن تحس قبضتي عليها.

كانت لا تزال بالثانوية في السنة النهائية لما أجبرت على قبول خطبة عبد الجبار معموري، الطالب في معهد الطب، الذي كان تعرف عليها قبل أشهر خلال عملية فحص لها مع أستاذه في قسم الاستعجالات في

مستشفى المدينة إثر نوبة التهاب زائدتها الدودية. كانت أمها توفيت منذ نصف عام. وكان والدها سرعان ما عاود الزواج: «في ليلة خطبتي نشب العد التنازلي لبداية مأساتي.»

فبين ما كان تبقى لها من وقت لإنهاء دراستها وبين موعد الدخلة، الذي تقرر أن يكون خلال العطلة الصيفية، تفاقمت عليها حملات عبد الجبار، المنحدر من نواحي سيدي بلعباس الريفية، يستعجلها الاستعداد للعرس في الأجل المحدد. كان يكبرها بخمسة عشر عاما. وكان سيتخرج في نهاية سنتها الدراسية نفسها.

وتتالت عليها مساومات والدها وتشددت، لإخضاعها إلى مشيئته: «بأي وجه أقابل الرجال! لا أريد بهدلة. تهيئي!»، كما صرخ فيها. فردت مكسورة: «اقتلوني إن شئتم أن لا ألتحق بالجامعة!» فصفعها: «مثل أمك!» وخرج من غرفتها: «كانت تلك هديته لي بمناسبة حصولي على البكالوريا!»

لم تنتحب. حكّت أثر الحرقة على خدها، فقط. نشوة شعورها بانهزام والدها أمام إرادتها أنستها شدة الإهانة. في الغد، كانت خيّرت خطيبها: «إما أن تنتظرني أربعة أعوام وإما أن تتقدم لفسخ الخطوبة. لن يكلفك الإجراء سوى شاهدين.»

فقد كان من بين ما اشترطه عبد الجبار أن تقطع دراستها وتسافر معه إلى فرنسا، لأنه وعد بمنحة دراسية هناك. فرفضت. وتصلبت. فعنّفها. هددها بأنه سيقتلها، من غير أن تبدي له لينا. كان ضخما مخيفا ثقيلا.

على وجهه آثار ندوب قديمة. وكانت، يوم التسجيل الجامعي الأولي، وجدته في انتظارها فجذبها عنوة إلى زاوية من حظيرة الجامعة وصفعها مرتين ثم انصرف. كان في حال سكر موصوفة. وبعد أيام جاءها ملتحيا، مظهرا لها أنه تاب والتزم. في مماشاتها له، لأيام أخرى، كان يفتي لها في أنه يجب على المرأة طاعة الرجل لدرجة أن لا تصوم إن هو لم يرخص لها بذلك. وفي أن الضرب مباح له لتأديبها إن لم تقبل أن يحرثها أنى أراد وأينما شاء وكيفما نزَا له. ووعدها بأنه سيراجع شرطه. ودعاها إلى أن ترافقه لترى حيث سيقيمان بعد عرسهما، وكان البيت لأحد أقاربه الغائبين. فثمة انقض عليها فعاركته. صرخت. قاومته إلى أن خارت: «مزق أحشائي بوحشية حيوان ضار. ثم قام عني تاركا إياي وسط بركة دمي.»

كان عبد الجبار معموري، بعدها، توظف في سلك الطب العام وتزوج معلمة. ثم انخرط ضمن جماعة مسلحة في جبال تيزي وزو، فيما كانت حسنية هربت بعارها إلى جامعة وهران: «كنت أعرف أن والدي لن يلاحقني لأنه تخلص مني. كان لا يكاد ينهض من سرير زوجته التي لا تكبرني سوى بخمسة أعوام.»

أذعنت لشهوتي مع حسنية فقطعت الإمساك مرات. غير أني لم أذق خمرا خلال الشهر المحرم، برغم أن خزنتي لم تكن لتخلو من زجاجة ويسكي أو قنينة نبيذ ولا من كانيتات البيرة، أنظف منها الثلاجة في شعبان. صار ذلك عندي عادة مذ أمسيت وحيدا.

إن كنت أضحيت أقضي أيام العيد بلا فرح فقدسيته تغمدت روحي مشعة من فرح الأطفال، من وقار العجائز اللابسات الملاحف البيضاء او الجلابات المغربية بأنواعها وألوانها، من مهابة الشيوخ في عباياتهم وجلاليبهم وعمائمهم وكنابيشهم ذات الألوان البيضاء والبنية والصفراء والسوداء أيضا.

لم أكن خرجت لصلاة عيد الفطر إلا نادرا ثم انقطعت عنها بعد وفاة أمي. لكنني كنت اشتريت شاة عيد الأضحى ووقفت على فريستها لحظة: «لمن، إذاً؟» ثم قلت لعبدقا النقريطو، الذي ذبحها وسلخها: «خذ نصيبا ووزع الباقي على من تعرفهم محتاجين.»، معطوب النفس بوحشة صارت لا تنجلي عني إلا بعد اختفاء مظاهر العيد كلها، ونهائيا.

2

محنة حسنية، قياسا إلى فواجعي أنا، كانت أمرّ من أن تترجمها كلمات. إذ أسترجع أوقات الفراغ معها في شقتي، أجدني كنت الطبيب النفساني برغم أنفي. كانت تلك هي اللحظات التي تنفتح لي فيها بأ لم على ماضيها؛ وفيما عداها غالبا ما حدثتني عن مستنقعات حياتها الليلية.

كانت تستلقي على السداري الثاني حينا وتستقيم حينا آخر، فيما أنا متخلٍ لصمتي يعيد بناء حطامها. هل كنت سأقدر على غير ذلك؟ كان الأمر مستحيلا. فالعبارة تعجز أحيانا عن حمل دلاله جرح الروح: «وضعية واحدة مثلي في جامعة كبيرة تتطلب حتماً اللوذ بشخص لا يحميها فقط من سطوة الرجال الطامعين ولكن يؤمن لها ما تواجه به الحياة في مدينة كوهران. نوار مصمودي كان هو من اعتقدته ذلك الشخص المثالي الذي

قد أجد عنده حضنا. كان نوار ابن تاجر كبير. يملك سيارته الشخصية وسكناه الفردية. لكنه هو الآخر أدماني.»

فلأيام، ظلت ترى نوار يستجلب انتباهها إليه، من سيارته، كلما خرجت من إقامة البدر الجامعية: «لم أدر كيف وجدت نفسي جنبه: "أخيرا، جَبْتك!" هكذا زاغ علي لما عراني في سرير غرفة نومه. فلحس رقبتي ونهدي وسرتي. وحك أنفه في شعر عانتي. ثم أولج لسانه كما جرو.»

إن ظل نوار لا يخفي حسنية، منذ بداية تعارفهما، أنه يمكن أن يحبها، لأنها شابة سمراء تُشتهى، لقوامها وأناقتها، فهي لم يكن في وسعها أن تمنحه أكثر من العطف وبعض الاعتبار لما كان يغدقه عليها. وإن كان هو، منذ اتصالهما الجسدي الأول، أوهمها بأنه لا يحب أن ينبش في الحياة العاطفية والجنسية لرفيقة له فإنها كانت رمّقت له أنها فقدت غشاء بكارتها إثر حركة رياضية طائشة في المتوسطة. فبلعها. وبقيت الغصة في حلقها هي.

لعامل نفسي، لا بد، ظل نوار عاجزا عن الدخول إلى قلب حسنية بدرجة لهفته نفسها على الاستحواذ على جسدها: «وجدته، كما بدا لي، لا يزال مراهقا غير ناضج. لا يأتيني بشهوته إلا بحثا على الثقب الذي بين فخذي. لم يعرف أبدا كيف يجذبني ببعض الكلام المهيج وبالحضن والقبلات. كان لا يلمس موضعا من جسدي إلا عندما أطلب منه أن يفعل

كان يدلكني أو أن يدعك نهدي قبل أن يلجني برغبتي كي أتروّض على رَوْم قضيبه.»

وسريعا ما كانت اكتشفت أن نوار مدمن على الاستمناء بواسطة المجلات الخاصة أو بمشاهدته أفلام الخلاعة. فدب في صدرها بغضها له مذ أخبرها كيف عاش ألذ الأوقات في تحقيق نزواته مع محترفة للجنس. فأوهمته أنها تتفهمه: «يومها، نشبت تعاستي الحقيقية.»

ولأن نوار لم يقر بأنه يعاني مشكلة نفسية فيعرض نفسه على أخصائي، حاولتْ حسنية صرفه عن تلك التصرفات الشاذة بأن لبت له رغباته وفتحت له نحو نزواته ليستمتعا معا بوضعيات جنسية متطرفة أحيانا.

فإن حسنية كانت أضحت تحس فعلا الشهوة واللذة وتطلبهما من نوار، برغم خوفها من أن ينقل إليها مرضا جنسيا فتاكا. غير أنها كانت ما أن تبادره، فيلجها، حتى يقذف منيّه ويغدو عاجزا. فآلمها منه أن يكون طبيعيا مع غيرها من النساء المحترفات.

فمرة، كان اشتكى لها من التهاب في أنبوبه المنوي بسبب بكتيريا خطيرة جداً فعزلته عنها حتى برئ. ومرة رجع إليها بقمل في شعر عانته، مدعيا لها أنه علقه من المسبح. فتقيأت. ثم صارت، كلما قربها، تصدّه. واشمأزت نفسها منه. وذبلت مشاعرها الغضة تجاهه: «حلمت فعلا بأننا قد نصبح حبيبين.» وتلاشى اعتبارها له: «المال وحده لا يصنع من مثل نوار أشخاصا يمكن أن يكونوا سعداء أو أن يجعلهم قادرين على مقاسمة غيرهم أي سعادة!» عافته، حد أن فكرت في أن تسممه: «كيف يضاجع

عاهرة ثم يأتي ليدخل فيّ قصيبه القذر؟ كنت سأؤذيه.» لكنها اختارت أن تهجره: «كان نوار هو من قرّبني من أنوار ملاهي وهران الخادعة، بالقدر الذي أبعدني به عن الجامعة إلى أن تخلّيت بعد تكرار سنتي الأولى مرتين. وهو الذي، كان تحت تأثير السكر، يدفعني من ليلة لأخرى في هذا الملهى أو ذاك للصعود إلى المنصات لأغني. لا أحس بغير الشفقة نحو نوار مصمودي لأنه لم يعرف حب الأم. وأنا لم أكن مستعدة لأن أكون معه تلك الأم. قدري أراد لي أن أفر من ظلمه لأتردى في شقاء أشد مرارة.»

بما ذا تجيب امرأةً شابة، لها من العمر سنّك، مثل حسنية تعلن إليك: «معك أنت، على الأقل، لا أعتبر نفسي تلك الكلبة التي جعلني الآخرون أحسها. جحدوا وجودي كامرأة. لم يروا في شخصي غير فاسقة جديرة بالقهر والاستغلال. جنتهم كاذبة. عشرتهم خادعة.»

فبخيوطٍ، غزلتْها من دم اغتصابها، كانت حسنية نسجت لي قصتها. أستعيد ذلكَ كأني أعيشه معها اللحظة، حيث أجلس. قالت لي، مذبوحة الصوت: «لو أنت ولدت أنثى كنتَ ذقت ألم التمزيق كما بمدية تخترق كليتك. وسمعتَ قضيض جسدك مثل شجرة تنكسر.»

كان ذلك سر حسنية. سر رحيلها القاهر إلى وهران. الحادثة، لفظاعتها، عفّرتها في وحل العار. وحولت حياتها تعاسة، على هذه الأرض. ذلك كان شعورها، تلك كانت حقيقتها كما رأيتها. لا أعتقد أن امرأة مثلها يبرأ روحها من مثل تلك الكلوم، أبدا. ومثلي لم يكن مهيأ لأن يمدها بأي خيط لأي أمل جديد.

كانت على عناد آتٍ، لا محالة، من حدسها أنه عليها أن لا تكون ضحية مثل والدتها، أن لا تحيا على مثاليتها: «عاشت طيبة، مطيعة ونبيلة. أما هو..»، مضيفة بعد زفرة: «كنت، بعد موتها، أتعمد أحيانا أن ألبس بعض ألبستها وأتزين مثلها، لأذكّر أبي بعز شبابها. كان ذلك يخجله، رأيته في عينيه.»، راسمة ابتسامةَ شماتة: «كلها صدف؟ لا دخل ليد القدر! كيف أن أمي، المرأة الجميلة الطيبة الوفية، صبرت على خيانة والدي إياها إلى أن توفيت تفترسها أنياب الإهانة؟»

شعور حسنية بغربة قاهرة في مدينة خادعة بضجيجها وألوانها وأنوارها، مثل وهران، هو ما قد يكون قربها مني. كنت ألمس ضعفها إذ تتظاهر فيها الأنثى، حين ينفلت منها رسن الجانب العنيد حدُّ الرعونة في مواجهة الرجال، بلا شك. كانت توهّمتني الوحيد من تأثر لحالها في عالم أمسى، عن مثلها، بلا سمع ولا بصر.

كنت أدرك أنها تعرف أني تحملت بصبر دمارها. قالت لي: «صرت لا أرى الرجل غير وحش مترصد لطريدة أحسني صرتُها. أنت، لا أدري. صوت من خرابي يُحشرج لي أنك لست مثل بقية من صادفتُهم. هل تثق فيّ؟»

تدرّعت عنها بصمتي. أي ادعاء مني أي مواساة أي شفقة، كل ذلك كان سيؤول إلى نتْن النفاق. فأضافت: «سامحني إن جرّعتك بعض ما في كأسي من مرارة.» ووضعت راحتها على جبهتها: «ليتك كنت لي أماً.

غريب حقا أن أبحث فيك عن شيء من آثارها.» وأجهشت: «كان فقْدها فادحا. أنا أعيش ياسي الأعظم.»

لم أحدث حسنية عن أمي، أبدا. لعله لإحساسي أني كنت إياها معترفة إلى نفسها. كانت في جانبٍ ما هي لساني.

3

برغم حدّة بوْحها المنهك لأعصابها، حتى لَكلُّ شيء فيها يرتجّ ألما، كانت حسنية تزداد كل مرة قدرةً على ترجمة أحاسيسها بِنيُوءَة قابضة. كنت أشعر بعمقها يرْجل بركانا من الانفعالات كلما أبدت لي بعضها بحساسية متطرفة.

فعلتْ ذلك كلما وجدتني لم أقدم لها شروحا قاطعة لحالها ولا أجوبة نهائية عما جعلها تعرف مصيرا لم تكن تتمناه: «يقال الإنسان كون معقد. هذه أنا صورة خالصة منه لا أحمل إلا نقائصه.» وتبسمت، على نبرة ساخرة: «إن لم أكن اخترت بيدي شيئا مما وقع لي فلما ذا أتدمّر بهذه القسوة؟» ثم ركزت الثريا الصغيرة من أربعة عناصر فوقها: «لو تجسّد لي قدَري لصرخت في وجهه بحمم من ألمي ليحس حريقي الداخلي.» وعصرت عينيها: «حدادي على نفْسي بدأ يوم سكت ربي

عن استغاثتي لتخليصي من قبضة الذي مزق أحشائي.»

وكانت لهجتها تصّاعد ألماً، تتصلب وتحتد حين تتحدث عن والدها: «أهملني. عزلني. هجرني. سعى بسبق إصرار إلى تقويض أساس حياتي: دراستي! أعتبر ذلك من أبٍ أقسى درجات الغلظة مع بنته! لطالما عدّني عنصرا مشاغبا في حياته الجديدة. فوجب التخلص مني إذاً بزواج مفروض، لأني كنت طالبته باحترام ذاكرة والدتي. كان يراني استنساخا لها.»، زافرة: «أنا أشبهها فعلا. وكثيرا!»

كسرتُ صمتي: «يحدث كثيرا أن يخطئ آباؤنا في حقنا.» فهشقتْ: «استطيع أن أسامحه. إنه من جيل آخر. قد يكون هو ذاته عاني أنواع عنف أخرى.» ونظرت إلي، كما لتسألني: «لم تكن لي الشجاعة لأن أعلنها إليه؟ هاه! قلْ لي، أنت!»

لما لم أسعفها، لأني كنت أحدس أنها ستثور بشماتات في حق نفسها لو أني وافقتها، أضافت، بصوت طفلة كانتْها، أنها رأت نفسها تقاطعت دائما مع أبيها في الاهتمامات الفكرية نفسها؛ فهو الذي فتح لها، وهي صبية، أبواب المطالعة فانسحرت بالمجموعات الخضراء والوردية من منتخبات الآداب العالمية التي كان هو نفسه مولعا بها في صغره، كما أخبرها ذات يوم، مثلها مثل المخترعات وعوالم الغرائب والعجائب، فأظهرت شغفا شديدا بها. وأن أسئلتها الملحاحة، عن الوجود وعن الله وعما يحيط بها وعن الجامعة، كانت لا شك، نابعة من ذلك كله. وأنها لذلك أربكت والدها في البداية. وأنها، بعدُ، صارت تخيفه بما كانت

تبديه من احتفاء لافت بجسدها.

ولما كنت أقررت لها أن حالها يستعصي علي فك شيء من تركيبها، ولذلك يحزنني شقاؤها، شبهت لي نفسها ببقية حطام قطعة ثمينة مر عليها زلزال أو إعصار، قائلة: «لأن قوة الألم والتدمير في داخلي، غداة محنتي، كانت فظيعة!» وهمست، كما لنفسها: «مثلَ صوت سمعته من خلف وجهي الكاسف أمام مرآتي أضاء في عيني أنِ انهضي!»

وصمتت صمتا مشحونا بألف سؤال آخر، لا بد، عما زحلق حياتها إلى مستنقع الفشل، عما ذا هي تفعل بين يدي، كيف جاءت إلي وكيف قبلتُ أن أفتح لها بابي وأن أسمعها، ثم كيف لا أطردها؟ كانت تلك هي أسئلتي أنا أيضا. ثم نظرت إلي، مرتقبة رد فعلي: «لم يكن بيدي أن أصير بغِياً.»

فقلت لها: «أبدا! إرادتنا تبغي لنا الانعتاق.»

فتنهدت. وقالت: «تعرف؟ والدي، كما حدثتني أمي، لم يعرف طفولة. كأنه ولد بالغا!»

فقلت لها: «تلك كانت حال كثير من آباء آبائنا، لأنهم تعرضوا إلى سرقة تاريخية جردتهم جميعا من طفولتهم. كانوا ضحايا آخرين للاحتلال.»

سكتت لحظات. استقامت. أشعلت سيجارة. ثم قالت: «كسرت أكثر من فنجان في يدي حتى لا أرى فيه وجه أبي.» ورفعت كأسها من على

الطالة قرب زجاجة الويسكي، ضاغطة. ثم وضعته: «كل شيء على هذه الأرض كان يُجمّله في عيني وجود أمي. واليوم أحس الدنيا فرغت من صميمها.»

كانت في أسوأ حالاتها إذ نطقت بتشنج أن والدها، وهي شابة في الثانوية، كان يتلف كل كتاباتها: يومياتها الحميمة وواجباتها التعبيرية أيضا وبعض رسائلها. ويرمي كل شيء في كيس الفضلات. ثم اعتصرت: «لا شيء يشفيني من جراحاتي. إني أتألم. إني سأموت من ذلك.»

فقد لمستُ أن كل ما خرج من سحق عالم حسنية الداخلي لم يبلغني إلا منكسرا انكسار نظراتها وحركاتها: «هدني الظلم. تخليت عن أحلامي ونثرت أوهامي، لأتعايش مع جرحي النازف وأتجرع، قطرة قطرةً، خيبتي.»، طافحَ النبرة حسرةً: «أحس سموم الفشل تعكر دمي.»، متداخلا حد الفوضى: «أحببت، وأنا صغيرة ويانعة أيضا، فرق الثوارير والطبل وقرقابو لدرجة أنْ كانت أمي تمازحني بأن في عروقي من دمهم! كانت جميلة جدا وأصيلة جداً. شهد بذلك المعزون في جنازتها. كانت جوهرة حقا.»

وأسندت ذقنها بكفيها معقوفتي الأصابع، راشقة مرفقيها في فخذيها، منقبضة النبرة: «رؤيتي قضيب الرجل لا تزال ترعبني. أحس حركة دخوله وخروجه المتواصلة حفرا مؤلما لاختراق روحي.»

ثم أرخت كل شيء: «تمنيت لو أني كنت لا أحيض، بلا قدرة على الإنجاب، بلا ساعة بيولوجية تذكرني بأنوثتي. يتحدثون عن اليأس!

صرت أنمّيه في إحساسي، مثل نبتة طفيلية. لو أني وجدت كيف أدمر منبع بويضاتي! لو أني اعتكفت في كهف حتى لا أرى رجلا!»

ثم استلقت: «والدي اغتصب حياتي كما اغتُصبت بكارتي بالنتيجة نفسها. كان فاحشا. عاش في الزنا. وها أنا مثله أتمرغ فيها. هل من مفر؟»

وشبكت يديها تحت رأسها: «حننت إلى شرب القهوة بالدف. اشتقت إلى أن أرى أواني أمي الطينية والنحاسية وطاسة الاستحمام الفضية، وأستلقي، هكذا، على خملة الزربية فأغرس فيها أطراف أصابعي، وأنام. وأن أحضّر حريرة ساخنة براس الحانوت والأعشاب. وأفرغ من القربة في صحن طينيٍّ الرّب بسمْن غنم الهضاب وآكل بخبز المطلوع. وأخرج ضلعة من الخليع وأمزمزها نيئة، يا لملوحتها! وأن أقطف النعناع من الجنينة وأحضر الشاي. أو أشرب الزعتر بعسل الشهد. وأن ألبس بدعية تلمسانية. وأهيئ القفطان لحفلة العرس القادمة. وأمضغ المسواك. وأضع الكحل بمورد أمي. وبحايكها وعجارها الحريرين أخرج في المدينة لأكون مثلها موضع دهشة، لأن بقية النساء صرن يلبسن الجلابة أو الحجاب. ولكن الآن يجب أن أبكي. كيف لا أبكي؟ هل أنت تسمع نحيب أعماقي؟»

وخللتْ شعرها: «كيف أترمّم، كيف؟» وأنّت: «أنا منهكة.» ثم نظرت إلي نظرة دامعة: «أحس برغبة لإطفاء ظمإ جسدي.»

كنت انتقلت جنبها وحضنتها، بجهشة.

4

في الميلومان، منتصفَ ليلة خميس، كنت ردّدت، في صمت، مثل كثير من الزبائن المنتشين.

«يا الزينة
ريبي للواد
ريبي للواد
وجيبي النعناع جديد
يا زينة
ديري لتاي
ديري لتاي
ومن القابْسة للبرّاد»

على نغم منفرد نوستالجي عباسي خالص من "رايْنا رايْ"، كان مَن قدّمه المنشط باسم بَنْعيشة، عزَفه على الساكسوفون، بانثناءات جسدية انسيابية نحو التلاشي وباعتصارات راحت لها إيماءات وجهه تعبيرا كلّه عن ألم عذبٍ ما فوق اللغة، نشجت به الآلة في كل نقرةٍ زفرةَ اشتياقِ عشيقةٍ لعشيق.

ولما كان، بعد استراحة، رقمُ حسنية، التي قدمها المنشط على أنها النجمة الساطعة، قد آن، أدرت ظهري إلى الكونتوار نحو منصة وقوفها، إلى يمينها عازف على الأكورديون وإلى شِمالها آخر على الفيولين وثالث خلفها على الباتري.

فكأنما من أحزاني أنا، انبعث صوتها شجيا مثل رجْع نواح لنوارس الميناء، وراء باخرة عند خط الأفق.

أُمَّيمتي انا
واش بِيَ خلّيت دارنا؟
توحشت حومتي
وبكيت احبابي
وللي كنت نستناه يطير بيَ
قالوا لي عليه
تكسر جناحُو...

رفعت لها كأسي، أحس قلبها يتحطم، فيما تهادى زبائن الميلومان،

وكانوا من الأربعينيين والستينيين أيضا، رأيتني أصغرَهم عمرا، مسحورا بتعبيرات مباهجهم وإيماءاتها، جالسين إلى طاولاتهم أو قائمين كئوسُهم في أيديهم وسجائرهم، أزواجا قدامى وعشاقا وفرادى وحيدين فقدوا القرين ومن خابوا ومن ينتظرون عيونُهم بين حين وحين على باب الدخول – قبل تلك الليلة، كنت تساءلت لأرزقي عن المكان كيف لا ترتاده إلا فئة معينة، كما في نادٍ خاص. فكشف لي: «هكذا هو الميلومان. الزبائن هنا أوفياء غالبيتهم من أوساط التدريس العالي والمحاماة والطب والموظفين والفنانين، من المدرسة القديمة. البقّارة يروحو وين كاين التبراح والڤصبة والرڤصات.» كان ذلك ذات مساء عادي، إذ انجذبت إلى ديكور الفضاء يبعث في النفس بهجة رومانسية على خلفية موسيقى عاطفية أو راقصة غير كهربائية مبثوثة تثير، إلى حد الهوس فعلا، أشجان الحنين كلها.

أُمَّيمتي انا

واش بِيَ خلّيت دارنا؟

رددوها لازمة، تحولت في أعماقي صدى تلاوة على روح أمي ليلة دفنها. رأيتها، في قبرها، بكت. ليس على أبي. لا أعرف أين أقبِر أبي. إني غير واثق من أني كنت سأقرأ عليه آية. لم أعد أذكر شيئا من كلمات أمي المتفسخة بنحيبها سوى: «بوك مات!» كان يجب أن يحل عام دخولي السنة السابعة الأساسية لتخبرني أنهم قتلوه، لأنه قتَل مدير مدرستي. لم أرَها أشد اكتئابا مما بدا لي يوم ذاك الخريف.

توهمتني الوحيد، من بين زبائن الميلومان، من كان رأى حسنية في

خائمة بكائيتها، كذلك أحسست أغنيتها، أشعّت بذلك الألق كله. لم تكن عباءة الديكولتي الزرقاء، المنمشة بعدس أسود خافق اللمعان المغلّفة بحنوٍّ نهدين جامِحَي الحلمتين المتلصّقة على صفحة بطنها الممصوصة عند تجويف سرتها المنسابة عبر فخذيها إلى حدود كاحليها، هي وحدها التي بسطت عليها ذاك السحر الصاعق.

برغم انكسارها الداخلي، كانت عذبة مثيرةً شهوةَ الحجر. أردتها لي، وحدي. ولو استطعت كنت خرّبت في ذاكرتها صور جميع الذين وشموا أثراً من الألم في جسدها. بل، كنت أغرقت في كأسي وجوه المتفاعلين معها بشهوانية، مهصورا برغبة جنونية أن أستأثر بها. كانت باهرة التجلي حدّ الفتنة! وكانت شهوتي إليها هادرة في صدري بوضعيات حلولنا ذا في ذاك.

وهي تنحني ناشرة ذراعيها، خلتها تؤدي انكسارها الأخير، كموجة من أمواج المتوسط تابعتها تتحطم تباعا، كأنما ندباً على حالي، بعيدا على صخور هاوية حي الصديقية، قريبا على رصيف الميناء، لما كنت رشقت مرفقيّ فوق حافة سياج فرون دو مير (جبهة البحر) المعدني المصوّب، عشيةَ يوم خريف ندية باردة. وأسمعت البحر بِصَمتي، أنظر إلى المدخنة الآجرية الكبيرة الطويلة كما جذع نخلة خاوٍ المهملة من بين أشياء الميناء القديمة، أن يحدثني عن الجزْر لما ذا قنوطي يَفوقُه قبْضاً على قلبي تعصره يدُ قدَر كان رمى في طريقي الدكتور قدور بن حوار أستاذ القانون الدولي في كلية الحقوق فأهانني أمام الطلبة الآخرين، في نهاية

سنتي الأولى: «أنت ما ربّتكش أمك.»، لأني كنت رفعت يدي بكلمة دكتور، خارقا سكوت جو المدرج المضغوط بأكثر من ثلاثمائة طالب. فلم يعرني انتباها وواصل. فأصررت: «دكتور. من فضلك. لا تُمْل علينا، رجاء.» فطردني. فسمعت، وأنا أخرج، صوتَ طالبة خلفي: «يا دكتور، واه! عنده الحق.» لم ألتفت. وكنت، إذ اقتربت منه عند خروجه لأعتذر له، تحامل علي: «مرة أخرى نْهرّس لك لغْبك. البطولة في السينما.» فواجهته: «هذا كلام يليق بالهزّية.» فصوّب إلى وجهي ضربة بمحفظته، تجنبتها، ونترتها من يده وفتحتها وقلبتها فسقط أرضا سندوتش من خبز وبيض وأوراق وملف وقلم. ثم رميتها بعيدا على دهشته وذهول الطلبة المتحلقين. كانت من بينهم واحدة اقتربت مني: «الشحْ فيه! حتى أنا لم أسلم من لسانه لما احتججت عليه بعد طردك.» فأومأت لها برأسي عرفانا – تلك كانت حسنية! وخرجتُ من باب جامعة السانية الشرقي لأدخل في بداية نفقي.

5

على تلاشي التصفيق، كنت لحقتُ بنجمة السهرة إلى مقصورة خلفية. ووراءها وقفت. فقام من كان يستناها على كرسيها، ظهرُه إلى مرآة متحركة. لم تنظر إليه. عيناها ردتا لي أنها لا ترغبه. انسحب زافرا غيظا رشني به. وعند باب الخروج، إذ كنا ننصرف، شدها من معصمها فدفعتُه من كتفه. فأشهر في وجهي مسدسا. فقطّرتُ له: «الرب ديالك هو شحمة؟ تعرف الروجي؟ هذاك رب ربك وأنا خطيب بنتو؟» وانتزعتها منه. ولو أني لم أقل الحقيقة، وما كان له هو أو لغيره أن يكذبني. فإن بختة الشرقي كانت تتصبّر عليّ لأكشف لها عن نيتي، كما قرأت في عينيها كل مرة، التقينا خلالها بعد خروجي من السجن وقبل رحيلها إلى الجزائر العاصمة. وسمعت في داخلي قهقهة لصوتي: «وسيكون وكيلك في الخطبة عبدقا النڤريطو، أيضا!»

سألتني حسنية، على الرصيف الساكن لصمت ليل خريفيّ مالح الرطوبة، عمن يكون الروجي – الكنية التي تطلق على والد بختة الشرقي. كان عبدقا النڤريطو يوم حدثني في قهوة الوداد أيضا عن اغتيال عبد القادر علولة في شارع مستغانم أن المفتش الروجي هو من قضى ضمن فرقته الخاصة على القاتل، معددا لي المسلحين الآخرين الذين لاحقهم حتى الموت أو القبض عليهم خلال مواجهات في أحياء وهران، مثل منفذي عملية التفجير الذي طال سيارة أسقف كنيسة الروح القدس، متجنبا أن يذكر والدي من بينهم جميعا، وكنت صرت أعلم أن عبدقا النڤريطو كان يعرف مذ قال لي مرة في طريقنا إلى الثانوية لتأدية دور الولي في تبرير بعض سياباتي: «أنت لست الوحيد من فقد أباه في المعمعة الدامية!»، لأني كنت اعتذرت له عن إزعاجه بأمر يعني والداً تُجاه ولده.

فبلا انفعال، كنت أجبت حسنية أنه أبو رفيقة سابقة لي في الدراسة. وفي المقعد الخلفي لسيارة احميدة الكلوندستان، جارنا في الحي الذي صرت، أؤجّره، قالت لي عن الآخر: «كلب حڤار. من شرطة الحدود في مطار السانية وهران. سمسار وشماتة.» لم أكن سألتها عنه. فإن أرزقي البازمان هو من كان وضع لي كأس الويسكي، على الكونتوار من الجهة اليسرى من المدخل، وكانت طاولات الميلومان في الصالة التحتانية، حيث البار الرئيسي، تستقبل الزبائن في بداية مساء صيفي، وهمس إلي نحو من كان دخل رفقة فتاة من الوسط صعد بها أدراج الطابق العلوي: «رجل قانون؟ هه. ما نحبش ناس مثله. أعجبني المعلَم نهار رفض باهش يشري منه كنية ويسكي كان، كما عادته بتواطؤ مع ديواني، ابتزها من المسافرين

الداخلين. يحتمي بالضابط شحمة.» الذي، كانت بختة الشرڤي أجابتني عنه: «شخص يغطي على المهربين ويراقب بيوت الدعارة غير المرخصة ويبتز المرتشين من الموظفين الكبار والمقاولين.»، إذ كنت سألتها عنه خلال غدائنا على دجاج مشوي وخبز وجبن وعصير وتفاح تحت الشماسية في شاطئ الأندلسيات، في ذلك الصيف الذي أعقب وفاة أمي. صيفٌ، أيضا، كانت ملاهيه ابتلعت حسنية عنّي.

وكان أرزقي أضاف، ببسمة ساخرة: «سي مراد، هنا ما يشربش بلاش. يجي كاش ما يصيّد.» فغمزت له: «ويأكل الفضلة!» وزحلقت له مائتي دينار. فإني كنت معه سخيا مذ كان، كمرشد فني في متحف، حدثني عن تاريخ كل صورة، هي لفنانين وكتاب، كانت معلقة جنب بعضها على خشب جدار قاعة البار عن يمين المدخل، كنت جئت قبل أيام لأشاهدها مدفوعا بفضول كان عبدقّا النڤريطو أثاره لدي، يوم دق بابي بعد انقضاء شهرين على وفاة والدتي وأقسم لي برأس أمه إذ اعتذرت له عن الخروج معه، وأخذ يدي وتوسل: «وقت للحزن، انتهى! ووقت للفرح، يأتي دائما!» وابتهج: «اليوم، خلصوني! راني مرفه!» وفي بار الركن، تحول مقهى الآن، بجانب المكتبة التي منها كنت اشتريت ديوان المتنبي، في شارع شارلمان (سابقا)، شرّبني بيرتي الأولى.

ثمة، حدثني عن مقاهٍ وبارات ومطاعم وفنادق في وهران كان يتردد عليها مشاهير جزائريونً وأجانب: «في الميلومان، يمكن أن تنسى جميع الصور إلا واحدة بالأسود والأبيض: علولة، بشلاغمه، كما السبع!»

كنت أنظر إليها، إذ سألت أرزقي من أين هو، على إحساسي بأنه متغرب، وكنت من خلال لكنته قدرت أنه من منطقة القبائل. فأخبرني أنه من البويرة. وحدثني أنه أحب فتاة وهرانية، لما خطب أهلها رفضوا بذريعة أنه يشتغل في كانتينة.

في تلك الليلة، لم يكن أرزقي مداوما.

الآن، أستعيد أن الخريف كان يجرّ ذيله وأن الوقت كان فجرا. سمعت الأذان. الأول، أو الثاني؟ ولا أذكر غير فرقعات حبات مطر على زجاج نافذة البهو. على وقعها، كانت حسنية سحبت، بالقصبة البلاستيكية، آخر نفّة مما كانت ذرّته من المسحوق الأبيض في صحن خزفي صغير فوق الطاولة قرب زجاجة الدجين التي كانت أنزلتْ ثلثها، بينما كنت أنا، بجنبها على السداري الثاني، حيث أجلس الآن، اكتفيت بحصتي من الويسكي بلا ثلج.

لم أكن أنا الذي جلب لحسنية المادة ولا كنت سألتها مصدرها، كما صار ذلك ديدني مذ تحررت عني ومن خوفها من كبّابة، قَوّادها ومُسخّرها. فقد كانت، في ليلة سابقة، أخرجت من محفظة يدها جريدة ونشرتها على الطاولة واضعة طرف إصبعها على صورته تحت عنوان "بارون وهران في قبضة الأمن. كان يتاجر في المخدرت والجنس". وزفرت: «عرفته في ملهى الجوهرة بعد أن كنت هجرت نوار. هو الذي أسقطني في مهوى الإدمان وسخّرني لغيره.»، جاذبة من سيجارتها عميقا: «خنزير وشاذ، هو أيضا! لكنه لم ينلني أبدا من خلف.»، عابة جرعة كبيرة من كأسها:

«كان يجبرني على أن أستمني له بيدي. وأن أمص له فيصرخ عند الذروة ويكفر ثم يشتمني. ويضربني أحيانا، بلا سبب.» وقالت لي، مرسلة علي نظرة مكر ذابلة: «كنت أنتقم منه من جيبه الممتلئ دائما.» ثم شهقت: «وكنت، فوق ذلك، أدعي له أنه يجب أن أرسل إلى أمي ما تواجه به مصاريف الكراء ودواء العلاج من مرضها المزمن.»

مثل شجيرة في مهب دوامة، قامت من السداري. وتدللت لي، بعتاب، ناشرة ذراعين لم تقاوم انكسارهما: «قل لي.. شُفتني كنت جملية؟»، لأني لم أكن تظرفت لها بأي ثناء. وبعثرت أصابعها، على غلاله حزن في عينيها: «كنت نحس نفسي كما نورس.» وأومأت بحركات ممثلة على ركح: «العباية لبستها لك أنت. نوار هو الذي اشتراها لي. كان يريد أن يراني بها في حفل زواجه. القحبون، لم يخجل!»، مزيحة بطرفي إبهاميها الحمالتين الرقيقتين فانسابت القطعة حريرا عند قدميها. لم تكن لابسة تحتها غير السترينغ.

أخذتني من يدي، مترنحة. وفي غرفة نومي، دفعتني إلى الخلف على السرير. قهقهتْ. جردتني في فوضى عارمة من التريكو ومن سروال الدجين ومن حذائي وجوربي والسليپ. ثم ارتمت فوقي، بلهاث جروة أمينة.

خللتُ شعرها. وبراحتي، حننتُ على خدها الساخنة، على نهديها. كان نبضها مدمدما متسارعا. زفرتْ. وانتحبتْ: «هواري.. تعرف؟ كنت.. نغني.. لأمك.. لأمي.» فهمست لها: «شْكونْ علمك؟» فزفرت،

ساكتة لحظة أجهشت بعدها: «هي!» وانخضّت. ثم تدحرجت ساكنة على الأرضية.

تلك كانت آخرَ حركة فارق عليها جسدُها جسدي.

6

لما طرقت باب عبدقّا النفريطو في نهاية ذلك الفجر وقلت له: «أحضر احميدة الكولوندستان حالا! أنتظرك في البيت.»، كنت صحوت تماما ورجعت من دون أن أمهله أن يسألني شيئا. ففي صمت رجلين واثقين، كانا ساعداني على نقل حسنية جثة باردة إلى المستشفى الجامعي.

قبل أن يحضر أعوان الشرطة القضائية إلى البيت، كما انتظرت نزولهم لأخذي من أجل الإفادة نظراً إلى المعلومات التي قدمتها لمصالح المستشفى بعد أن أكدت لي الوفاة، كنت خبأت المسدس بين فاصلي المدفأة الغازية. وسلمت عبدقّا النفريطو نسخة من مفتاح الشقة. وعينت له علبة شاي معدنية في المطبخ. فيها كنت وضعت مبلغ ستة ملايين سنتيم. فهو الذي داوم زيارته لي خلال مدة وضعي تحت الرقابة القضائية، التي تجاوزت

الثماني والأربعين ساعة إلى أسبوع كامل قبل تحويلي إلى الحبس، إثر توجيه التهمة إلي.

فبناءً على وجه الاتهام: "الامتناع عمدا عن تقديم مساعدة إلى شخص في حالة خطر"، تم النطق بالحكم علي ثلاثة أشهر جبسا نافذا وغرامة خمسمائة دينار، مع مراعاة ظروف مخففة، كان محاميٌّ انتزعها لي، متحذلقا على كلمة عمدا الواردة في الفقرة، كوني لم أتعمد القتل، بانيا خطته على نتائج تقرير الخبرة الشرعي المثْبتة للسكتة بفعل الجرعة المهينة وعلى شهرة حسنية في أوساط تجارة الجنس باعتباري إحدى ضحاياها، كما رافع بحماس. وكان ذلك ما أقرفني منه. فإنه كذب أكثر مما قال شيئا صادقا عن ضحية حقيقية.

يوم خروجي من السجن، في صباح مشرق، كان عبدقّا النفريطو هو من لاقاني غير بعيد عن الباب: «كبرت يا خويا الصغير! والشمس كانت تسوّل عليك!» ثم أفسح إلى المرأة الشابة، كانت هي بختة الشرقي، لتقبلني على الخدين فيبيد عطرها ما كان سكن مشمّي من روائح الجدران والوسادة والأغطية والأجساد قرفا وتقززا حد القيء، إلا رائحة الدم! وترسل علي من عينيها فيوضا من شوق أحسستها طهرت روحي؛ في صمت كالصلاة امتد للحظات ما ابتسمنا أخيرا لبعضنا يداها في يدي. فمثل هاربة بفرحي، قالت لي: «سنلتقي!»، فيما كان الآخر قد ولانا ظهره مبتعدا قليلا. فإنه لم يحشر أنفه يوما في حياتي الشخصية ولا سألني شيئا لا يخصه.

خلال العشاء الذي دعوته إليه في الطابق العلوي لمطعم الميديتير انيان، في شارع خميستي، رفع لي نخبا: «للرجال!» ونظر إلي عميقا، كأنما بحثا في عيني عما كان بقي خافيا عليه خلفهما: «أنت، فيك سحر رباني. كيف تفسر لي أني مشيت معك منقادا في المؤامرة؟» فتبسمت، متلطفا له بأني لا أدري. فهز شاهده نحو صدري: «أنت جذاب، فعلا!» ونزّل من صوته، كأن أحدا كان يسمعنا: «بويا كان يخدم في معمل صناعة القوالب الثلجية. المثقب، الذي كان يستعمله، هو كل ما ورثته عنه من أملاكه.» وكهكه متراجعا إلى مسند كرسيه: «تمنيت لو أني استعدته لأحتفظ به.»، مخرجا رأسه من بين كتفيه: «ربما كريته لمظلوم آخر يقعّر به كرش حقار آخر من أولاد القحاب!»

وشد على يدي: «أنت، أمك ما جابتش منك زوج!» فأومأت له نفيا برأسي: «ما لازمش زوج كِيف كيف!» ولاطفته، غامزا له: «أنا، يكفي!» فاسترق نظرة هنا وأخرى هناك، وكانت الطاولات فرغت من شاغليها الذين نزلوا إلى كونْتوار البار أو غادروا. وهمس لي: «نْخبْرك؟ السرْجينتي طمع في الستوديو!»، معاودا المشهد: «قلت له: "اسمع يا سرجينتي طيزي!" – حاشاك أنت. "هواري ما يهدرش. ما يضربش باهش يجرح. هواري يقتل. شفت بعينيك. هات المفتاح! ما تكونش شماتة".»

وقبض على ذقنه: «العساس عمي بشير نهار قلت له جيتك من عند هواري على المفتاح قال لي: "هات كلمة السر".»، متعجبا: «كأنه كان ما زال في العسكر! قلت له: "مرجاجو"!» ثم عب ما كان بقي في كأسه:

«الرجال كما الجبال ما تهزهم رياح بخرية ولا قبلية!»

فإني كنت، إذ زارني عبدقّا النقريطو ثاني مرة في سجن المدينة الجديدة، طلبت إليه أن يحضر لي مثقبا. لا أدري لما ذا لم أطلب غيره؟ سكينا يطوى، مثلا! كان المراقب بنعمر السرْجينتي، كما يلقّب لأنه سرح من العسكر برتبة رقيب وأعيد إدماجه في المؤسسة العقابية، هو الذي فتشه يوم زيارته الثالثة لي بنسخة مزورة من شهادة عائلية أثبتت أنه خالي، مرة أخرى. كانا صديقَيْ طفولةٍ في حي سان پيير .

فكل ما كان بنعمر السرْجينتي طلبه من عبدقّا النقريطو، مقابل تأدية الخدمة، أن أعيره مفتاح شقتي ليلتقي فيها من قال عنها إنها صديقته. فقطعت له رفضا. بدل ذلك، كنت وجهت عبدقّا إلى عمي بشير في ميرامار ليأخذ منه مفتاح الأستوديو – كان جمال الدين سعْياد دعاني إليه خلال عطلتي الربيع والصيف من سنتنا الأخيرة في المتوسطة فقضينا فيه لحظات عابرة عذبة على سماع موسيقى غربية وتناول حلويات ومشروبات غازية ورقص مع فتاتين، في عمرينا أو أزيد، لم أكن أعرفهما.

غير أن السرْجينتي كان، مرة ثانية، رفع مطلبه إلى أن أدفع له مليونين نصفهما مقدماً قبل أن يكلف نفسه المرور علي بعد العملية ليرتب الأمر بما يُتلف عني آثار ارتكاب الفعل. ثم تسلم المليون المتبقي من يد عبدقا النقريطو، كما كان تسلم منه النصف الأول.

فلحظة وقوفه قريبا مني، وكنت زفرت كل حنقي متراجعا خطوة عن جثة خضرو البومة بالمثقب في يدي يقطر دما، كان يحمل تحت إبطه سترة

ويقود سجينا يحرك رأسه آليا نحو كتفه الشمالية. فأخذ من يدي الآلة ووضعها في يده: «وهيب! ها أنت انتقمت من البومة.» وأحناه فطاوعه فهمس له: «قلت لي تحب تفعل في أمّ للي لطخ شرفك.» فقلب وهيب الجثة، حاطا المثقب جانبا، وارتمي فوقها، في وضعية لواط، مصدرا أنينا قاسيا. فأقامه السرْجينتي، ملطّخا بالدم، ووشوش في أذنه. فنطق: «سأقول لهم!»

كان وهيب، تحت المسكنات، يقضي عقوبة المؤبد لقتله بالساطور ابنته وزوجته إثر دخوله عليها في السرير مع شخص قفز من النافذة عاريا، لم يكن غير زميل له في الوظيفة الإدارية التي كان يشغلها تحت رئاسته، وانهار بعدها عصبيا.

وهو ينظر بمقت إلى الجثة، كان السرْجينتي همس لي: «تمنيت لو كنت أنا للي سيّل دم هذا الخنزير. مليح لولد القحبة الحقار المهووس. ارتح أنت. ما شافك حد. عديانه بزّاف هنا. وحتى المدير كان لا يعرف كيف يتخلص منه. هاك هذه التبديلة. وهات الأخرى. أنت ما تقدرش تنظفها من الدم.»

في فطور الصباح، داخل الريفيكتوار وسط الضجيج والسعال، أرسل علي كثير من المحابيس نظرات، كحزمات ضوء على شبح وسط ظلمة، فيما كان الحراس، لرهبتهم من شهرة السرْجينتي بالقسوة، تجنبوا أي تعبير تجاهي، لظنهم أني كنت تحت حمايته.

فقد كان متداولا عنه، في السجن، أنه أحيل على محكمة البليدة

العسكرية وأدين فسرح من الجيش بسبب مخالفته أوامر قائده باقتياد المقبوض عليهم من الجماعات المسلحة إلى الثكنة، خلال عمليات التمشيط في منطقة الزبربر. وكان يكتفي باستنطاقهم ثم يخيّرهم، حتى الذين اعترفوا منهم ومَن أبدوا تعاونا، بين الموت حرقا، بعد رشهم بالبنزين، وبين الذبح. وأنه كان يقول للجنود: «تذكروا! هكذا يخيرونكم إن وقعتم بين أيديهم أحياء!» وعدّد لهم كل مرة أسماء لرفاق كان ذلك مصيرَهم. ثم يصرخ: «عريف! تنفيذ!»

فهو الذي سلمني رسالة بختة الشرقي، وهو الذي، كما أخبرني عبدقا النقريطو، لدى زيارته الأخيرة لي، مَن أشاع أني أحد أقارب الروجي. وكان هو أخيرا من قال لي خلف باب خروجي من السجن: «أنا نبغي الفْحولة مثلك!»

الفصل الرابع

1

اليوم يروق لي الاعتراف لنفسي بأن بختة الشرقي سبقتني دائما بمسافة ليلة من النباهة واللطف. كانت، بعد أيام من خروجي من السجن، قالت لي في بيتزيريا شارع خميستي: «أنا مقتنعة بأنك لم تكن أنت السبب في موت تلك الفتاة.» فقاطعتها، شعورا مني بذنب تجاه روح حسنية: «أخبرتني أنها التقتك مرة في صالون حلاقة وسألتك عني.» فحركت رأسها، على أسف؛ ظهر ذلك من نظرتها الشاردة: «أتذكر. كانت فتاة تخفي حزنا عميقا.» وأضافت، متخلصة تماما من نبرة التذكار: «إنها مصادفات الظروف. كما أنت لم تقتل إلا دفاعا عن نفسك وشرفك. أخبرني الوالد بمجريات الحادثتين.»، لأني كنت اعتذرت لها عما تكون ظروفي أصابتها به في مشاعرها. فقضمت من قطعة البيتزا المثلثة ثم خزّنت مضغتها إلى حنكها، مسدلة رمشيها

على بسمة خفية: «أمس فقط، كنا تلاميذا!»

رددتُها إلي: «ورجعتُ على آثارنا في المتوسطة.» أذكر أن وجهي كان إلى عمارة دار الحياة الشهيرة بطوابقها الخمسة عشر، بلا مصاعد، الحاضنة إلى صدرها أربع عمارات صغيرة، بسبعة طوابق، كأنها بناتها التوائم.

ابتسمتْ: «في الساحة، كنت أومأت إليك مرة نحو الطابق الثامن، بين العمارتين البنتين.» ثمة كانت جدتها لأمها تسكن. وثمة كانت تقضي غالبية أيام الأسبوع الدراسية قبل أن تعود إلى بيت والديها في حي مديوني.

فكثيرا ما كان وهمي صور لي، خلال غياب بختة الشرقي عن هذا الدرس أو ذاك، إذ أرتكن في فترات الاستراحة إلى أقصى الجهة الغربية من الساحة لتراني، أنها تطل علي من وراء ستار نافذة شقة جدتها.

قلت لها: «أمام باب عقبة أخرجت رسالتك وعاودت قراءتها!» كنت سمعت صوتها تردد صداه في فراغ الساحة خلفي، كما من قبل في سجني بين صمت الجدران من حولي وضجيج الوحشة في صدري « وكنت أطل عليك من النافذة. كنت دائما تتموضع حيث تحس أني أستطيع أن أراك في تلك الأوقات من الاستراحة. يجب أن أخبرك أني كنت أستعمل منظارا ميدانيا لتقريبك. ولو أن قلبي كان بريئا من أي إحساس آخر، غير فضول اكتشافك، فإني كنت أشعر بانجذاب غريب إليك. ليس عطفا على حالك، أبدا. تستطيع أن تتخيل طبيعة ذلك. فكل شيء بالنسبة إلي كان بدأ في عقبة».

وبحت لها أن رسالتها كانت الوحيدة التي استلمتها في سجني. فاستعادت لي: «كل شيء كان بدأ يوم عودتي من عطلة مرضي الإجبارية إثر إصابتي بعدوى الأنفلونزا الموسمية.» كنت، بتحريض من جمال الدين سعياد، أعرتها كراسين لنقل دروسها.

افترضت لها: «وقد يكون يومَ اقتربت منك خلال استراحة لأسألك عن طرفي إحدى جمل الشرط في فرض اللغة الفرنسية أكُنت ركّبتُهما بشكل صحيح.» كان امتحان الانتقال إلى السنة التاسعة وشيكا.

فقوسّت لي عينها تذكّرني بمكري: «وكنت وجدتك تنتظرني عند المخرج لتعيرني كراسي الرياضيات واللغة العربية!» كان جمال الدين سعياد قال لي أيضا إن خطه هو رديء. وفي الغد، إذ أرجعتْ لي الكراسين، خزرتْ إليّ فوقَ تحتَ. ونطقت لي، بثقة: «شكرا! كنت أظنك لا تهتم كثيرا. وخطك جميل، أيضا!» فقد أربكتني. أعادتني إلى طفل صغير كنته يوم دخولي المدرسة أول مرة. لنظرتها تلك، كانت رفرفة فراشة ربيع، رأيتها بين أمي وجدتي، حلقت فوق قبر جدي.

الآن أشعر أن وضعية بختة الشرقي خلفي، خلال سنتنا السادسة، كان لها أثر الرقيب علي في كل ما كنت أتيته داخل القسم الدراسي، فيما ظل المعلم رقيبِيَ الأمامي. لعله لذلك ازدهرت، في لاوعيي، رغبتي في أن أظهر أني أستطيع أن أكون جيدا. في تلك السنة، استبقاني المعلم مرة عند الخروج وانشغل لي لما ذا لم تعد أمي تأتي لتسأل عني. فأجبته، كما أظن الآن، باستكبار الصغار: «راهي تخدم!»، فيداها لم تكونا تكادان

تفرغان من مقص التفصيل والشريط المتري. كنت في السنة الرابعة لما رأيتها، في جلابتها وخمارها، اقتربت منه، مقيما حراسته في الزاوية الرابعة إلى يمين باب الدخول، وكلمتْه فرد عليها بإيماءات، لن أعرف أبدا فحواها. فكم هي أسئلتي الأخرى التي كنت أجّلتها أو كبتُّها!

قبل ذلك، وأنا في السنة الثالثة، كان الأولياء الزائرون، لأمر دراسي يخص أبناءهم، صاروا يدوسون على النظام إذ يتعدون إلى الأقسام بعد أن تولى أحد المعلمين إدارة المدرسة خلفا للمدير، الذي كنت لا أراه وقت الدخول والخروج، وأحيانا وقت الاستراحة، إلا بالكوستيم والكرافتة والحذاء الملمع، في أيام البرد كما في حرّها وفي المطر كما في الصحو. فمثل التلاميذ جميعا، وكانت عطلة الربيع للغد، صعقني في تلك الصبيحة الحزينة نبأ اغتياله. كنا في الساحة تناقلنا: «قتلوا المدير!»، من شفة لأخرى في حال أشبه بقطيع خرفان مذعورة حُوّشت مجموعات. وكان المعلمات والمعلمون تحلقوا حلقات، حتى المكلفون منهم بحراسة المناطق الأربع، مشلولي الحركة والإيماءة. كل شيء كان بدا تعطل إلا الصافرة عاوية إعلان نهاية الاستراحة.

2

لم يكن مفاجأة لي، لأني كنت انتظرت أن يحدث ذلك يوما، أن بختة الشرقي، في نهاية تناولنا البيتزا المشتركة، كشفت لي: «عرفت منذ أول يوم أن أباك هو الذي اغتال المدير برصاصة في الرأس. كما عرفت لاحقا أن والدي هو من قاد هجوم فرقته الخاصة على مجموعة أبيك التي كانت تحصنت في سكنى بحي اللوز. وأن المعلم الطاهر فراحي هو من بلغ عنهم لأنه صاحب الدار المؤجَّرة.»، مستنفرة ملامحها لشدي إليها.

فصدّقت لها بإيماءات من رأسي. وافترضت لها أن معلمنا قد يكون مخبرا. فاكتفت بإيماءة ريب من جفنيها. فنطقت لها بما لم يكن في نيتي: «لا بد أن للمدير قبرا يزار. أما والديا»، لإحساسي فجأة بعراء اليتم. كنت أريد أن أقول لها إن ما حصل عبث كله. فأمسكت على يدي وضغطت:

«لأن أمك، كما يبدو، رفضت أن تستلم جثته.»

نظرت إليها نظرة جرّدها من أي تعبير شرودي إلى أبي يصفع أمي. فركّزتني، على ثقةٍ، للحظةِ ما أشعرتني أنها قرأت في دخلي أني كنت سأقبل منها، من دون حرج ولا شعور بألم، ما أخبرتني إياه بتلك الواقعية النيئة. وقالت لي: «ظل يسيطر علي هوس أن ينتقم منك الذين قتل والدك أباهم.» فقلت لها: «لم أعرفهم. ولا لقيتهم، أبدا.»، من غير أن أبدي لها بصيص رغبة في أن أعرف هل هم موجودون. فإن المدير كان لا يسكن في المدرسة. ولكني خمنت متأثرا أن أمهم، إن وجدوا، كان سيشقيها عبئهم.

فبأي شعور كنت سأواجه أحدهم، بنتاً كان أو ولدا؟ وإن لقيتهم، فبأي ملامح؟ ما الذي كنت سأقوله؟ أطلي جسدي بطين الفجيعة وأصرخ: «أبي ظالم!» فكذلك همستها لبختة الشرقي، مسكوناً بصورة يُتم أبناء مدير مدرستي بترمُّل أمهم. فإنهم كانوا، لحظتها، تظاهروا في ذهني فعلا. لم أتخيلهم فحسب، رأيتهم ثلاثة: ولدين وبنتا على مائدة الغداء استبطأوا، مثل أمهم، عودة أبيهم! أمي أنا كانت، لما نقلت إليها النبأ، ضمتني إلى صدرها على شهقة. وفي غرفة الحمام انتحبت. سمعتها. بكت لحالي، لا غير.

وقلت لبختة الشرقي، إذ صمتت في وجهي تحت ظل حزن عابر: «يُتمي أنا، ليس من أبي. إنه من هذا العالم الغاشم النَّفور!» ولكنْ أخجلني أن أعترف لها أني كنت، لو وقفتُ يوما على قبر والدي، الذي خانني

حماسي لكشف مكانه، لتضرعت إليه: «لماذا أنت؟» حتى أرى بأي قناع بأي صوت كان سيجيبني.

وتساءلت، لقدري أكثر مما لبختة الشرقي، لما ذا أشقاني والدي بأنْ نقش على جبهتي خطيئته القصوى. فأجابتني: «لا أرى عليها، كما بخطك الجميل، سوى أنا نبغيك! ماراكيشْ تشوفي؟» ليلا، كتبت بطرف سبابتي في مرآتي، خارجا من حمامي «بختة، أنا نبغيك. واه!» ثم نفخت وأعدت كتابتها، تاركا لتيار هواء خفيف يمحوها.

فلشهور، كان وجه مدير مدرستي هو ما شغل عقلي بما أنساني أن أسأل أمي عن أبي، كما كنت فعلت فأجابتني كل مرة أنه غائب في خدمة بعيدة. فقد قضيت زمنا، مولعا بإعادة بعث ذلك المدير في كل شخص أنيق رأيته. أشبّهه، وأنا إلى اليوم أجهل اسمه، بأولئك الذين أحسبهم لا يزالون يحفظون لأصول وهران عهدا بموضات ملابسهم وأنواع تسريحات حلاقتهم ومشياتهم على الأرصفة وتصرفاتهم في الأماكن العامة وتلطفاتهم مع النساء والأطفال والعجزة عند ضرورات اللياقة.

كنت، ولا أزال، كلما نبشتُ في تذكاراتي عن والدي، لم أجد، مما كان يمكن أن يبقى لي منه، غير جملة «هواري ورّي لهم بلّي أنت رجل!» وشيء مثل سراب من هيئته نصفَ عارٍ وهو يصفع أمي فانتثر شعرها الأصهب فلمّت بيديها على وجهها وصرختُ أنا إلى أعماقي ملتجئا إلى المطبخ.

فقد تنهدت بختة الشرڤي، ردا على إطراقي. ثم بذرت لي حيرتها: «عجيب هذا المصير!» فردَدت، بانقباض في قلبي: «رحى! إنها رحى طحنت كل حلم.» فنغزتْ بشوكتها حبة الزيتون: «مَن حرّكها؟» ثم قربتها من فمها. ثم، تخلت: «كيف حدث هذا كله؟» فرميت، بلا قناعة: «ما ذا؟» فحولت طرفها نحو زوجٍ فتيانٍ جلس قرب طاولتنا: «أن تكون عائلتي وعائلتك قريبتين دائما مَن المكان الذي كان يجب أن ندرس فيه!»

مزاجية قدر هي، إذاً. كذلك أقنعت نفسي بأن تكون إعارتي بختة الشرڤي الكراسين هي عقدة تلاقينا. فقد تعجبت لها، أو تساءلت: «العائلة!؟»، على انفلات زفرتي، غطيت عليها بافتعالي تصويبا: «إلا خلال الثانوية!» فحصرتني إليها بابتسامة مرتجة: «تمنيت أن تظل رفيقي في الجامعة، أيضا.» فأوحلتُ عينيّ في بقايا البيتزا بيننا، أحس غيهب نفقي ذاك عاود ابتلاعي.

فحطت يدها على يدي فوق الطاولة. وحنّنت، خفيفا: «يمكنك أن تحضّر شهادة عليا في معهد خاص. أستطيع أن أتدبر الأمر بكل ما يترتب عليه.» فحضنت يدها بين يديّ: «دفنت كل شيء، الحلم والدراسة، كلّ شيء. لا تنبشي الآن! أنا نبغيك كما هكذا!»، زائغ الطرْف إلى امرأة ابتسمت نحوي كانت، خلاف الزبائن الآخرين من الأزواج الشباب، جلست وحدها في الركن تدخن.

أوه! كم كانت بختة الشرڤي قوية في تخطيها بي لحظة قنوطي تلك!

فإنها نظرت إلي بغبطة، كأنْ لم تتأثر، كأنْ لم تكن تذكرتْ أني أضعت طريقي فدخلت السجن وقَتلتُ!

كانت سألتني، على عجبي كيف هي تفعل ذلك بعد سنين، إن كنت أعرف ما ذا صار جمال الدين سعْياد، التّرّاس الصغير، كما كانت تلقّبه. فإنه كان يبدو أكبر من عمره، أشد حزما في روابطه مع غيره، حتى ليخيل لمن كان لا يعرفه، كما عرفته أنا شخصيا، أنه منزوع غدة الضحك – في تلك الأعوام الثلاثة التي قضيناها في عقبة، كان لا يتحدث إلى غيري في الساحة إلا نادرا. فمعه، في سيارة يقودها سائق والده الشخصي بزي مدني ويغرس مسدسا في خاصرته تحت قميصه، كنت دخلت أحد شواطئ بوشفر المحصورة لضباط الجيش والأمن وعائلاتهم. كان ذلك خلال آخر عطلة صيفية له في وهران. أذكر طيبة أمه السيدة كهينة وسخاءها. شاوية صهباء مذهلة الجمال. قال لي إذ جلسنا إلى مائدة الطعام بمفردنا، متعيين من العوم جائعين: «هي التي ألحت على أن أدعو بعض أصدقائي. جاوبتها أنه ليس لي سوى واحد.»

كانت تلك المرأة وقفت عند المصرف وأشارت إلى القابض نحوي فأوما إلي أنها تدفع عنا فحركت لها رأسي تشكرا فضمت أصابع يدها اليسرى إعجابا وخرجت، على شرود بختة الشرقي عني إذ كنت أخبرتها أن جمال الدين سعْياد رحل مع عائلته إلى مدينة تبسة حيث عيّن والده ضابط عمليات في المنطقة الحدودية الشرقية.

نفضت رأسها، تعبيرا عن أنها لا تصدق. وأخرجت من محفظة

يدها صورة تذكارية لسنتنا الأخيرة في عقبة وقربتها لي: «هذا أنت، بكبريائك! وهذا جمال الدين، المتشامخ!» فقاطعتها، محتدم النبرة حنينا: «وهذه أنت، بوثوقك، طبعا!» فواصلت متأثرة: «وهؤلاء بقية الأشقياء والشقيات.»، زافرة: «تفرقوا جميعا!»، ضاغطة يدي: «كأنْ لم يبق منهم سوانا!» ثم مدتها لي: «هذه نسخة. احتفظ بها!»، ناظرة إلي، كما واحدة تتعرف علي.

لم أخفها استغرابي. سألتها ما بها، لأنه قبض عليها اكتئاب مفاجئ. فحركت رأسها: «لا شيء!»

3

في أواخر الصيف الماضي، على شاطئ الأندلسيات الندي، إذ كنت وقفت بعيدا عن عبدقا النفريطو، أتأمل فراغي، هصرني حنين إلى أمي تشبّه لي خيالها بنورس عبَر على انخفاض فوق صفحة البحر المتوسط المحتفيةُ عليها رقصاً أشعةُ غروب أواخر شهر أوت وقد شلّت حركةَ آخرِ المصطافين، إلا قليلا، برودةُ نسمات خريف مبكر، على هبوبها كانَ صوت الأمواج المتعبة يتناهى كأنفاس كائن أسطوري غارق في سبات.

فقبل عامين، كنت فقدت بختة الشرقي أيضا، في نهاية سنتها الرابعة الجامعية. كان رحيلها عني بطعم فقْد أمي، التي لشهرين متتابعين، ظللت أُصابحها كل جمعة في مقبرة العين البيضاء، قبل أن تتراجع وتيرة زياراتي إلى اثنتين بمناسبة العيدين ثم إلى واحدة في عيد الفطر؛ عيدٌ صارت صبيحته

تثيرني بقرف من نفسي لانتهاكي حرمة رمضان، بين يوم وآخر، للمزاج الذي استيقظت عليه أو كلما انكسر خاطري خلال أي ساعة من النهار قبل موعد إفطار غصني بهمّ وحدتي.

كانت بختة الشرڤي، قبل عامين إذاً، على رمال الشاطئ نفسه، مستلقية جنبي على ظهرها تحت الشماسية، قد رددت معجبة: «أمك خارجة من الماء بعباية لا صقة على جلدها؟ لا بد أن جسدها كان فاتنا!»، لأني كنت بحت لها أنها هي الأخرى كانت تذهب إلى البحر، ضاحكا من تخييلي إياها لها خارجة من الماء كيف كانت تفك لصق العباية من على جلدها! فذلك كان يثير مختلسي النظرات المذنبة إليها أكثر مما لو كانت لبست البكيني، متصورا إياها بقطعتين أيضا، كانت تغوي عين الشمس وتجتذب أصابعها! فمن عنقها ومن وجهها إلى صدرها وزنديها وساقيها، إذ تتنمش بشرتها لونا برونزيا، كان لا يخفى أنها قضت، على هذا الشاطئ أو ذاك، أنصاف نهارات كثيرة، وكان بعيدا عن نيتي أن أسألها لما ألححت بنظرتي على صدرها ذات مرة فطمأنتني على أنها تخرج هي وبعض زميلاتها إلى البحر. كانت السباحة بالحجاب في بعض الشواطئ صارت هي الموضة!

ثم تداركت لها: «لم أر أمي يوما في الماء.» فردت: «أمي أنا هي التي علمتني السباحة.» فسكتُّ، لداع غامض، عن أن أقول لها إني وجدت نفسي أتقن السباحة، هكذا صدفة، يوم دخلت البحر أول مرة رفقة جمال الدين سعياد. ولم أذكر لها أن أمي صحبتني معها مرة واحدة وأخيرة

إلى الحمّام خلال عطلة شتاء سنتي الأولى في المدرسة فظهرت لي النساء العاريات في بيت السخون وسط البخار مثل مومياءات بلا ملامح.

في ذلك اليوم، كنت سألت بختة الشرقي سببَ ولوعها بالمتنبي. فطوقتْ فخذيها وركبتيها بذراعيها ويديها مغرقة نظرتها في الزرقة المتهادية. وأنشدت.

«كذا أنا يا دنيا إذا شئت فاذهبي
ويا نفسُ زيدي في كرائِهها قُدْمَا
فلا عبَرت بي ساعةٌ لا تُعزني
ولا صحبتني مُهجةٌ تَقبل الظلمَا»

وقالت، كأنما للبحر: «لأن جدتي كانت تعشقه!» ثم التفتت إلي: «وددت لو أنك حضرت مناقشة مذكرة تخرُّجي. كنت أحببت أن تسمع فكرتي عن مقارنة بسيطة أقمتها بين المتنبي وبين شكسبير حول نزوعهما إلى تمجيد الذات من خلال: "الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم" و" أكون أو لا أكون، تلك هي المسألة!"» فتبسمت لها، إخفاء لنبرة مرارتي، أن ذلك بات بعيدا عني. فتنهدت وشدت على معصمي.

وثمة، في ذاك الصيف الذي سبق رحيلها، أحسست بختة الشرقي، بجنبي تحت الشماسية، هي وحدها الدنيا من حولي. كانت على أريحية لا تضاهى. فقد أجلت إلى آخر دقيقة، إمعانا في التلذذ بلحظاتنا تلك،

كما أتصور الآن، أن تخبرني بمرارة أفلتت من صوتها: «والدي.. عُيّن في وزارة الداخلية.» فهنأتها. فرمتني بنظرة عتاب، عاضة على شفتيها العليا فالسفلى تباعا. ثم قالت، مذبوحة الصوت، حبلى العينين: «سنرحل معه.» وقامت، في قطعتين زهريتين، لامة على وجهها نحو العرض الهادئ.

الفصل الخامس

1

كنت وقفت على قبريْ جديّ جنبا بجنب، لداع ملح هوّسني بأمي أراني إياها غير ما مرة بينهما. كان ذلك بعد أربعينيتها التي، مثل أسبوعها، كنت قوّمت تكاليفها بما يكفي عشرين شخصا من اللحم والكسكسي والخضر والسكر والقهوة والملح والتوابل والزيت والسمن وسلمتُ القيّمَ على مسجد الحي مبلغَها للمحتاجين صدقةً مِن تركتِها.

وفيما عاينت أنه كان لا يزال بين القبرين متسع يكفي لضم قبر أمي: «لم لا يكون قدري قيض لي أن أكون أنا بينكما؟»، أحسست هَمْسها في ظهري، أنه تعذر عليها أن تكون إلى جوارهما، بل صوتَها أيضا: «قل لهما!» فنفيت لذاتي، أكثر مما لجديّ، أن يكون لذلك علاقة بطبيعة موتها، قطعاً. فلا يوجد في كون البشر مستقر أكثر مُسامحةً لهم، على زلاتهم، من حضن أمهم الأرض.

ثمة، قدّرت أن يكون المبلغ الذي عثرت عليه في الصندوق هو أصل ما ورثته أمي من بيع سكنى جديّ.

وكنت، ما أن أنهيت تلاوتي على اللحدين، حتى وقفت بجنبي امرأةٌ، في نهاية زوال يوم اثنين دافئ الشمس، بينما المقبرة تفرغ من زوارها. وتلفظتْ: «الله يرحمهم ويرحم أمّة محمد.» وأضافت، بلا ثقة: «لا بد أنك الحفيد.» فأكدت بحركة من رأسي.

كانت تبدو في سن وقامة قريبتين من عمر أمي وقوامها. وكانت، بدلَ الجلابة أو الحجاب كما كثير من النساء الزائرات المغادرات، تلبس الحايك. جدتي، مثل أمي، كانتا لابستين نوع الحايك نفسه يوم خرجتُ معهما إلى المقبرة ذاتها وقمتُ بينهما على قبر جدي، مشدودا إلى صقل رخامات قبْرِيته والشاهدة التي حُفر فيها بخط مغربي ملون بالأسود للحروف والأحمر لنُقطها.

" كل مَن عليها فانٍ "

هنا يرقد المرحوم المغفور له

العربي بوذراع ـ المدعو الشاوي

1997 - 1936

" إنا لله وإنا إليه راجعون "

ماتتا كلتاهما لأدرك لما ذا وقفت جدتي على بسمة كأنما مستعيدة

لقرينها بعض حماقاته معها أو مُسرة إليه أن أيامها بعده كانت لن تطول أكثر. وانفعلتُ لأمي أنها ظلت صامتة باردة النظرة قبل أن تشهق. كان الطالَب المقرئ ختم تلاوته بما كنت حفظته في المدرسة – إني قرأت، في يومي ذاك، السوَر القصار كلها بين القبرين، كما لم أقرأها كلها في مقبرة العين البيضاء عند وجه أمي.

توهمت أن تلك المرأة كانت انتظرت ظهوري ذات يوم، وقد حدث، لتعلن إلي: «جدتك، كانت امرأة من سكة الذهب. أنا التي غسّلتها.» وتفجّعتْ: «جسمها كان كما عمود رخام!» ثم مررت براحتها على الحايك من بطنها إلى فخذها، كما على بشرة ناعمة: «من نوع مْرمّة الحقيقي. هي التي أعطتني إياه في آخر أيام مرضها.» ولولا أني كنت استبقت إلى إعداد جوابي: «الدايم الله!» عن سؤالها الحتمي: «وأمك، كيف حالها؟»، لاختنق صوتي. وربما كانت دمعة خذلتني. فاحتزنت لي: «حدثتني عنها لاله العارم. ونادت عليها في لحظات احتضارها.» اعتقدتُ: «لا بد أنها كانت تحب أن تجاورها إلى جانب جدي.» ونظرت إليها بطرْف، كاشفة: «جدتك أغدقت على موظف في البلدية لتُترك لها هذه المساحة.»

وبيمناها البيضاء المكتنزة المزينة المعصم بأسوارة، كما وسطاها بخاتم، من ذهب كليْهما، أشارت إلى ما خلف سور المقبرة، حيث قطعة أرض بوار: «تلك المساحة كلها حتى شجرة الزيتون هناك اشترتها جدتك بذهبها وأوقفتها لتوسيع المقبرة.»

ثم تولّت، في خشوع، نحو قبر جدتي المحوّط برخامات وشاهدة لا تقل نصاعةً وجودةَ خطٍ عن تلك التي يظهر بها قبر جدي المجاور، بين بقية القبور.

الله أكبر
يا زائرا
هذا قبر المرحومة
العارم شريف
1998 - 1938
الباقي الله في ملكه

وقالت: «وقفت بنفسي على الرخايمي ووصّيته: "المرحومة كما أمي. صوّبْ لها قبرية تليق بمكانتها!"»، متذكرة لي باعتزاز: «نهار المصابحة هنا، حلفت لأمك بالله حتى تخليني أنا للي نخلّص من دراهمي قبرِية لاله.»، متحسرة: «ذهبت في كفنها، فقط!» وعلى شرودي إلى مكان قبر والدي المجهول، أضافت، بإشفاق: «يا غْبينْتك، أنت!»، ملتفتة نحوي بكامل وجهها الصافي الحلو، فاكة قبضتها الشمالية على طرفي الحايك أسفل عنقها: «أنا حلّومة. الناس، هنا، لا يعرفونني بغير هذا الاسم.»

ففوق صمت القبور، بعثرتني أصوات القدَر ناطقة بالحروف على الشواهد، ذكورا وإناثا من أعمار مختلفة غير تلك الصغيرة التي لا شواهد لها، نِسياً صارت، لعشرات من المولودين ميتين أو ممن جاءوا إلى الوجود

لساعات لبضعة أيام لأشهر من غير أن يعلموا أبدا لما ذا جاءوا لما ذا رحلوا، هم الذين واراهم أهْلوهم بلا أحزان كبيرة فلا عليهم تصدقوا أو أَقرأُوا القرآن أو ترحموا، لأنهم في العرْف ملائكة، لم يأتوا أي ذنب، طاهرون من دنس هذا العالم.

3

في بيتها الذي دعتني إليه، مجاورا لبيت جدتي سابقا، كما كنت تذكّرتُ، كبّت لي حلّومة فنجان القهوة. وحدثتني: «قبل أربعينية لاله العارم بليلة، كان رجل، عرفت بعد ذلك أنه موثّق، دق على بابي وسلمني مبلغ بيع دار جديك مقابل إمضائي على وصل. وقال لي: "السيدة تثق فيك. هي التي أوصت بأن تسلمي، بعد موتها، هذه الأمانة لابنتها." وطلب مني أن أشعر أمك بأن البيت يجب أن يخلى قبل نهاية الشهر.»

ثم حثّتني أن أشرب. وتبسمت، على إجلال: «لاله جدتك، قرأت لكل شيء حسابه. كانت امرأة من الكبار!»

لم يكن في صوت حلّومة ولا في ملامحها ما أثار ذهني بشيء، أي شيء، من الريب إذ أخبرتني أن جدتي كانت، من قبلُ، تصدقت لإمام المسجد

بألبسة جدي وأحذيته والأفرشة والأغطية الزائدة على حاجتها. وأن أمي، في غداة أربعينية جدتي، التي لم أحضرها كما جنازتها، وهبتْها الأثاث والملابس، لم تأخذ إلا ما هو حميمي – فتوقعتُ، بالنظر إلى ما كنت وجدته في الصندوق، أن تكون أمي أبقت فقط على الصورة وقارورتي العطر الصغيرتين.

فقد نظرتْ إلي، بقدر ما بدا لي أنها اطمأنت على شيء في عينيّ، لم يكن سوى انجذابي إليها. ثم خرجتْ لتعود بعد لحظة بحقيبة جلدية قديمة وضعتها فوق المائدة بيننا. فتحتها. وطلبت إلي أن أقوم، مخرجة برنوسا أسود من جوخ الملْف بحاشية صفراء غامقة حوّطتْ به كتفيّ. فامتزجت لي رائحة حفظه بعطرها هي. وغويت في اللحظة بأن أحضنها داخله، فيما كانت هي تراجعت عني خطوة: «لاله العارم كانت تحب أن تراك به هكذا! هو وهذه الحقيبة، الغالية عليها كما خبّرتني، هديتها لك.» وتبسمت: «قالت لي أنت تشبه جدك.»، مقربة جبهتها: «أزْعر مثله، فعلا!»، هامسة: «ولكنْ عيونك لعيون لاله العارم. شحال كْبار وكحل!» فقلت لها، متأثرا: «لم أرها سوى مرة واحدة. وأمي تشبهها أكثر!»، سائلا روح جدتي: «لِمَ لم توصِ بهديتك لي إلى بنتك وهيبة، أمي؟»

كل ما في حلّومة، صوتها وحركاتها استثناءً، راح طلْقا إذ امتدحت لي: «كم كان موت لاله بهياً! سكتة قلبية حاسمة!»

فإن أمي، بعد ثلاث سنين من ذلك، وقد ألفيتُها متطهرة تماما من أي حزن، كانت أعادت علي، على بَغْرير بالعسل والشاي حضّرتْه احتفاء

بانتقالي إلى الثانوية، أن جنازة جدتي كانت حدثا أطبق بلدة سيدي الشحمي كلها. فتلقى كل واحد وواحدة من السكان التعازي، كأنهم أهلها وأقاربها. وأطعموا. وصابحتها النساء في الغداة. ورششن على قبرها ماء الورد. وتصدقن للأطفال بالتمر.

ولأني كنت انجذبت أكثر إلى آلة الغَنّاية العتيقة، بمكبّر صوت نحاسي شبيه بالمحقن ورأس من الكرومْ حامل لإبرة القراءة، المرفوعة الغطاء بذراع معدنية، الموضوعة فوق صوان من الخشب الملمع، على جانبيها أسطوانات لا تزال في جيوبها الكرتونية الملونة في صفين من خمس وأربعين لفة يظهر في أولها الشيخ حمادة بعمامته وشلاغمه الجزائرية ومن ثلاث وثلاثين بوجه أم كلثوم الفرعوني، فإن حلّومة رشفت من فنجان قهوتها وقامت، في بدعية برتقالية تشربت منها خداها العامرتان حمرة أزهرت إذ ابتسمت لي ملاطفة بأصابعها الوسطى طرف الصوان، كما تتلمس حريرا: «لاله العارم، كانت امرأة زمانها. جاءت وراحت وخلّتْ أخبارها!»، هازة رأسها تقديرا، فتموج النور المتسرب من النافذة على شعرها الأسود الكثيف القوي المسرّح كرأس نخلة، مضيفة: «ظلتْ قرب جدك، مثل أم ترعى رضيعا لها، إلى أن دفنته.»، ساهمة: «ذاك، كان حُب زمان!»، ممسدة على جيدها البض الأبيض بأطراف أناملها المبرْنَقةِ الأظافر أحمرَ.

ثم سحبت إحدى أسطوانات الشيخ حمادة من الجيب. وبقطعة كتان ناعمة للغرض، أخرجتها من قمطر الصوان، مرّرت دائريا على مساحة القرص، في لباقة.

وركزتني طافحة العينين حنينا، كأن وجهي كان لها باعثَه: «أنا أحببته، أيضا! وطغنته في قلبي لم تبرأ بعد.» ثم تولت، مدخلة ثقب الأسطوانة في المحور: «هجرني لأنه لم يثق فيّ.»

واستدارت، على ابتسامة: «"مثلك، لا يريدها الرجال سوى للصحبة!" هكذا قالت لي لاله العارم.»، متخلّية: «الله يرحمها! كانت امرأة مجربة.»

وقد عاودت الجلوس قربي على الفراشية الصوفية، مارَحَتني بعتاب: «أنت لا تتكلم كثيرا، مثلها!» فهززت لها كتفيّ ويديّ وحاجبيّ أيضا لأترجم لها عبارة: «يبدو!»

فكبّت لي الفنجان الثاني من إبريق الفخّار في الصينية المعدنية، المزينة بتصاوير من فاكهة المشمش والتفاح والعنب الوردي والأبيض وأوراقها: «كانت تبغيها بالقرفة والجلجلان.»

ورفعت طرْفها إلي، بفخر: «في أيام مرضها الأخيرة، لم تكن تأكل ولا تشرب من يد غير يدي. ولا كانت من قبلُ تركت أحدا من الممرضين غيري يقرب جدك. كنت الوحيدة من تكشف عنه لأحقنه.»

وأومأت بيدها إلى أعلى، مدحا: «جدتك كانت تستطيع أن تشير فقط ليقف المستشفى كله بين يديها. أغدقت كثيرا على مسئوليه. لمهابتها، كانت كما أميرة. كما ولية صالحة.»

وتنهدت، بفعل ما كانت لن تنطقه لي أبدا، أو هكذا تصورتُ: «بعد

وفاتها، تركتُ الخدمة بتقاعد مسبق.» ثم ضحكت فجأة: «كانت تنبه كل من ناداها الحاجّة إلى أنها لم تحج أبدا. وكنت أنا أولاهم. كما السحر، فتنني فيها أن أُلاغيها لاله. كانت تنطرب لذلك! كثير غيري كان يناديها السيدة.»

وفتشتْ في وجهي عن شيء، بدا لي أنها كانت ستسألني عنه، ثم تراجعت. ولكنْ، كما تسبرني، استعادت لي، بإعجاب: «لاله العارم، كانت لكْنتها عذبة! لم تكن تنطق الراء مثلنا. كنت أحسها تلوي لسانها إلى أعلى قليلا!»

في عتبة باب الحوش، نطقت لي حلّومة بانقباض حسرة: «عشْوية بالسفّة قليلة في حق ولد لاله. أحببت لو بقيتَ إلى العشاء! كنت أسمعتك أيضا ما كان خاطر جدتك يبغي.»، مستحضرة لي: «من أغاني الفلامنكو في أيامها الأخيرة.»، لأني كنت شكرت لها واعتذرت، مأسورا برغبة قضاء الليلة في بيتها أستكملها تفاصيل محنة أمي مع أبيها، جدي. وعلاقتها الغريبة بأبي.

«جدتك هي التي جاوبتني بأن الأمر لا يفيد شخصا لم يعد يتعرف على أحد، لما سألتُها كيف لا تزور بنتٌ والدها المريض؟» كذلك كانت حلّومة بدأتها لي. وبلعت حرجها بشربة ماء من كأسها. ثم أضافت أن جدتي كشفت لها أيضا أن جدي طرد أمي من حياته غضباً عليها لقبولها أن تبقى في يمين شخص وضيع النسب.

4

فوقتَ ما كانت رحلة رجوعي استغرقتْه، في طاكسي، من سيدي الشحمي، بحقيبة جدتي داخلها برنوس جدي، إلى سان پيير، لم أكن انفككت لحظة من استحواذ طيف حلّومة علي. كنت قلت لها، عقب تناولنا سفّة الكسكس بالعسل والرايب: «لن يجرح قلبي أبدا أن تحكي لي عن جدَيّ الآخرين. أمي ذهبت إلى الأبد بكل أسرارها.» فترددتْ واعتذرتْ. فألححت عليها: «إن كانت جدتي حدثتك عن أصول أبي فإنما لتكشفي أنت ذلك لشخص أرادت العناية أن أكونه. لعلها رأتني في لحظة إشراق لها أني لقيتك، كما الآن، وطلبتُ إليك هذا فعلا. لا تخيبيني! أحب أن يستريح بالي.»

فقد سقط عن وجه حلّومة، إذّاك، بُرقع عرافةٍ خلتُها أمي تُفشي إلي

سر محنتها، إذ هرّبت نظرتها أبعد ما يكون منبع الخجل. كانت كلماتها، برغم حريرية صوتها المواسية، نغزا في كبدي كما برأس سكين، كزّت له أسناني، لا ندما ولا حسرة؛ فإني بريء من تاريخ ما وضعتْ يداي في صنعه قشة واحدة، ولكن بسؤال عمن أراد لي أن أكون حفيدا لجد آخر كان في صف الحركى متعاونا مع جيش الاحتلال؟

«خنْفاروا» إذ لفظتْها حلّومة، مضيفة: «هكذا كانوا يلقبونه.»، ارتج جسدي لقرقعة انكسار في أعماق روحي. تخيلتُه ذميما. أكدتْها حلّومة: «كان يتجنب أن يرى وجهه في المرآة. لا يحب أن يطيل غيْرُه النظر إليه. عذُب، لذلك السبب. قَتل.» لم أسألها إن كانت تعرف اسمه الحقيقي.

فإني رحت مشغولا بيد هذا القدر كيف عقدت خيط مصير إنسان بآخر فيكون جدي لأمي، غداة وقف إطلاق النار، هو من أصدر أمره بإلقاء القبض على جدي لأبي بعد أن تخلى عنه قائد الثكنة الفرنسية مثل بقية الحركى الذين لم يستطيعوا الفرار إلى الموانئ نحو فرنسا، ولم يتدخل لما كان أحد جنود جيش التحرير اقتاده للانتقام منه على اغتصابه لزوجته وقتْله لأمه وأبيه ونهبه لبيته في الريف فأحمى إلى درجة الغليان قِدراً معدنيا مملوءاً زيتَ محركاتٍ ثم بحبل دلاه فيه على رأسه من فرع صنَوبرة مكبّل الرجلين واليدين إلى ظهره؟

معمر، أبي، كان وقتَها صبيا في يدي أمه، جدتي الأخرى، التي ماتت معتوهة بعد ذلك بسنتين. فتربى في حضن امرأة هجّالة لم تكن من أقاربه.

على أن حلّومة كانت تولت إلي، على غلاله تأثّرٍ جمّلت وجهها، لما اعتقدت لي أن أبي كان مجنونا بأمي مذ عرفها في المتوسطة التي طرد منها لأسباب تأديبية. فأضحكني الهم، في سري: «مجنون أنا بالوراثة!»، متصورا نفسي أُصبتُ بالمثل. ولكون أبي، كما أضافت، ظل يعرف أنه لن ينال أمي من أبيها، اختطفها والتجأ بها إلى إحدى مغارات جبال سنوس في منطقة مغنية، فتزوجها غصبا. فشعر جدي بإهانة عظمى، كانت هي سبب بداية انهياره. فأقسم لذلك على أن لا يرى وجهها ما حيي. بل، وكان هدد جدتي بأن يقتلهما معا إن وجدها يوما في الدار.

فما الذي كان غلّني عن أن أُنابِش أمي لم لم تزرنا جدتي في البيت، ولا مرة؟ لم لم تحدثني عن أبيها، جدي، أبداً؟ أما جداي الآخران فكانا، ولم ينتزعاَ من وجداني أي مَيْل، كما شيئين في الغيب. وإن ذكّرني وجه أبي، إذا ما عبَر ذهني صدفة، بأن له هو أيضا أبوين، فإنما ليلطمني مشهده مع أمي تتلقى منه تلك الصفعة، التي قرعت في أذنيّ. فعصر نحيبها قلبي. واستعادني غبنُها سؤالا منسيا: «من أين جاء أبي؟»، شادة على خديها مبعثَرة الشعر: «أستحق أكثر. أنا للي عصيت والدَيّ!» لن أنسى نشيجها. ليلتها لم تراقب لي دروسي، كما عادتها. كنت في السنة الثانية.

إن لم أكن نزعت يوما إلى معرفة جدّيّ لأبي فإن هواجسي أرتني ابنهما، أبي، جاء هكذا إلى الحياة من دونهما. مثل مخلوق خرافي. خرج من الماء. أو تفصد من شجرة. أو نتأ من التربة. أو هي أمواج بحر رمت به. مهدهدا باهتزازات الطاكسي، كما بجنب أمي يوم زيارة جدتي، كان

قرَع ذهني: «ما الذي يكون ربط حلّومة إلى لالاها العارم، جدتي، غير ما اكتفت بكشفه لي؟»، مفعم المشاعر برائحة الزيارة التي علِقتني: من مزيج الموت والحياة ترابا للمقبرة وأعشابا للربيع. ومما انبعث لي، إذ عبَرتُ باب حلومة الحديدي المفضي إلى حوش دخلتُ منه صالتها الصغيرة ذات النافذة الواحدة المطلة على سهل بوارٍ امتد لعيني، من خلف ستار أبيض شفاف لما اختلستُ نظرة اطمئنان، خليطا من رائحة صوف الفراشية حيث جلست. ومن خشب الصوان والأسطوانات والغَنّاية فوقه. مما تحسسته من حلّومة ذاتها؛ أنفاسها الآتية كما من حرارة حمام معطرة. ومما خلّفته بيدها الطرية اللدنة في يدي شادة عليها برغبة استبقاء محمومة عند عتبة دارها.

كانت حلومة، ما بين القهوة بالجلجلان في فنجان من خزف مَغْنية لا تزال نكهتها في مَبْسط مذاقي وبين سفة الكسكس بالعسل والرايب، أسقطت لي ورقات من شجرة حكاية جدي لأمي عن دخوله مستشفى سيدي الشحمي. ثم قامت فاقتربت من زوادة صيد جلدية معلقة على الجدار قرب إطار آية الكرسي ونطقت، بانكسار فاتن: «هذا كل ما ورثته من بُويا!»، متعجبة لي من أنها هي أيضا، مثل أمي، قاطَعها والدها لاعتراضها عليه أن يتخذ على أمها ضرة.

وبنبرة ندم، حزّت صوتها: «لم يكن ذلك من حقي. كنت أنانية ومنحازة إلى أمي. ربما تكون لعنته أصابتني.»، متحننة: «لم يكن أبا سيئا.»، معترفة: «الحق! أمي، كما أدركت أنا المرأة مثلها، كانت عجزت

عن أن تستجيب لحاجته في الفراش.»، سارحة: «كل شيء فيه كان قويا! شخصيته، جسده وروحه.»، باسمة العينين، نحوي: «رجل مثله، تطمع فيه جميع النساء طول عمره.»، موسعة إياهما على افتخار: «وكان هو لا يتحرج مع مَن تعجبه!»، مستدركة بإيماءة من سبابتها: «كان صيادا ماهرا!»، ضاحكة: «مثل فحل الماعز كثير النزو على أكثر من واحدة!»

حلّومة، هي التي ضخّمت فضولي بحال جدي، مستعيدا صورته جنب جدتي الوفية. أجل، الوفية! فلا قدرةَ كانت لتنزع من ذهني هذا الشعور. كل شيء في داخلي كان ينطق بأنها أحبته بوفاء رومانسي. وما حسبتُ عنايتها تلك به، إلى آخر لحظة من حياته، إلا من حرصها، بغيرة، على أن لا يفلت منها إلى غيرها من النساء. وفِي قناعتي أنها كانت ترد له جميلا، احتملتُ أن يكون ما أبداه لها، طول عشرتهما، من شغف حقا ومودة ورفعة لقَدْرها.

وبانجذاب نحوي، جعلني أغوى بها فعلا، كانت حلّومة اعتزّت لي بأن عِيشة أولئك، قاصدة جدي لأمي وأمثاله ووالدها هي، لم تكن لتُحسَب حياة إلا حين تكون من تلك اللحظات التي تنفخ فيها رياح الزهو على جمرات قلوبهم، لا تطفيها غير دمعات حزن هنا وقرْح هناك.

وكانت، لما اعتقدتُ لها أن زوجها هي قد يكون معتلا نفسيا، لأنها تشكت لي أنه لم يمهلها أن تُظهر له أنه يستطيع أن يثق فيها على أصلية نسله، سمّرت راحتها على خدها، قائلة، بلا تحسّر: «بهلول، كان شديد الحساسية تجاهي. لم يستطع مقاومة غيرته عليّ وسط الرجال في المستشفى.

ساومني أن ألزم البيت. رفضت. وجد الذريعة.»، زافرة: «عاود الزواج من واحدة بأثرة مرفهة!»، ملاحقة بعينيها شيئا كطيف ابتعد: «كل ما أحتفظ به منه هو عقد طلاق وتذكارات من أيام جميلة كنا قضيناها قبل زواجنا.»

5

أذكر أن أمي إذ كانت عادت من جنازة جدتي بكمدات سهد، كأنها آثار كحل ممسوحة، لم تكلمني، بصوت مكروب، إلا عن دروسي في المتوسطة. فذلك ما عاشت مشغولة به، من قبلُ ومن بعدُ، أكثر من غيره في حياتي. كان ذلك لا بد لهاجس أن لا تراني أنقطع عن دراستي، كما انقطعت عنها هي في الثانوية لسبب، إن لم تكن أفصحت لي عنه، فإني ما زلت أعزوه إلى تحرشات أبي بها، قبل أن يختطفها. ولا ريب في أنها كانت وجدت ذرائع أخرى لتَخلّيها عن دراستها أقنعت بها جدتي، خشية أن تخبر جدي بالحقيقة فيقتل من كان سيصبح أبي.

فعلى عشاء من الكسكس تناولناه في صمت، كانت حدثتني أن والدتها باعت أملاكها في مدينة تيموشنت واشترت دارا في بلدة سيدي

الشحمي. وقالت لي، ببرودة: «حتى تكون قرب زوجها.» الآن يعتصر قلبي، رثاءً لحالها، أنها لم تقل: «قرب أبي.» أو: «جدك.»

فإن جدي، كما أخبرتني حلّومة، وكنت خمنت أن أمي ظلت تعلم ذلك وتتستر، كان نُقل إلى مستشفى الأمراض العقلية إثر نوبة عصبية عاصفة خلالها كان دهس كل ما صادفه في طريقه، بحثا عن سلاحه الناري، صائحا مزبدا مهددا جدتي نفسها: «سأخنقك أنت! أين خبأت السلاح؟ البيّوع الكلب! سأقتله. آكل من كبده. أطهر تاريخي منه. مسئول طيز أمه!» ذلك، بعد أن كان مرّ من أمام مقر الحزب فتوقف وبصق بين قدميه، لما رأى في مدخله مسئوله الأول بوذن – كنيةٌ عرف بها لأُذنه التي قطعتها له جبهة التحرير تحذيرا أخيرا له على تردده على مكتب كابتان لاصاص «الفرقة الإدارية المتخصصة» في الحرب النفسية، يخرج بالكوستيم والكرافتة ونيشان صغير بألوان العلم الوطني عند الجيب الأعلى.

وكان جدي استأنف مشيه لما سمع من ورائه: «مجاهد؟ حتى الدجاج جاهد! رُخْ رُدْ بنتك!» فدار مهرولا. فحال الحارس دون تقدمه نحو بوذن، الذي تقهقر منسحبا إلى الداخل، مرددا: «كأنه ما يعرفش بللي كنت وقت الثورة أخدم مع هذا الطرف وذاك!»، كما روى ذلك الحارس لجدتي يوم زارها ليطمئن على حال جدي.

وكانت جدتي، على ذعرها، وجدت نفسها مسمرة عن تهدئة زوجها، في حال هستريا، غير قادرة على إثنائه عن تفتيش خزنة الملابس وحقيبة عرسها الجلدية، التي كان أهداها إياها ضمن المهر، باركا مطلا

تحت السرير، قالبا المطرح، فاتحا أبواب خزنة المطبخ.

فعنْ بُعد، كانت تابعتْه حتى القبو، الذي خرج منه لاهثا بلمبة في يده. فاعترضته بصدرها. فنحّاها بمرفقه جانبا. وأقام السلم فصعد. وفكك ست قرميدات. وانبطح، مدخلا رأسه بين مربعات الأخشاب. ومسّح بنور اللمبة أرجاء المساحة الجبسية. وأرغى: «وين راه؟» وهو ينزل، يلتهمه الغضب، فقدَ توازنه.

كان على جدتي أنْ أحضرت الجبّار فوضع لجدي عيدان الكلخ والجبس على الذراع والفخذ اليمنيين. فتنازل من يومها عن كبريائه طالما واجهَها بها إظهارا لكفايته عن حاجته إلى غيره.

ولما كانت جدتي ضحكت عليه من خجله، إذ مسحت له أول مرة كما رضيع أعضاءه الحساسة، أدمع. وشهق. وكلمها، كأنها غائبة عنه: «رشاش الماط 44.. كنت خبأته تحت القرمود. لم يفارقني طيلة الحرب. كل معاركي وعملياتي خُضتها به.»، نادبا كما طفل: «وين خبّيته، بعد ذلك، يا رْفيقْتي، وين؟ كان لازم تصفية بقية الخونة.» فأخذت يده بين راحتيها: «نسيتَ؟ سلمته بيدك إلى قائد فرقة الدرك.» فعصر عينيه، أسفا. فوضعت خدها على خده وهمست له لحنا.

«يا نَوْري يا الغابة
نَوْري
يا نَوْري
دَرْقي لي ذاك السبع..»

فغفا.

فقد لزم البيت معتزلا من بقي له من أصدقاء كان يلقاهم في المسجد غالبا. فصلّى في غير وقت وفي أي وقت، بلا وضوء ولا تيمم، صلوات لا إكمالا ولا تقصيرا. ثم انقطع. وصار يخيل إليه أنه رأى هذا الشخص أو ذاك من الأموات من رفاقه في حرب التحرير ومن الحركى والعسكر، أيضا.

واستنزفه شبح صهره معمر صفصاف، والدي، واقفا بالباب أو داخلا عليه من النافذة. فقام من سريره وطرده ساخطا صائحا: «يا ابن الخاين!» فأحسستني، أمام حلومة، كبة صوفة تبْشمها أصابع جدتي لتحيك منها وجهي هذا الذي لم يعد انعكاسه في مرآتي يخجلني بقدر ما يحيرني لمن هي ملامحه، إن لم تكن خالصة لأمي.

وفي ليله مستيقظا أو نهاره، أوما جدي بعينيه وأذنيه أنه سمع صوت ابنته وهيبة، أمي – لما ذا تلح عليه إن لم يكن ذلك لشعوره بالتبكيت؟ فأخفى وجهه بين يديه وأجهش. ثم قهقه واستلقى.

فإذا قام من تراخيه لم يقف، كما عهده، أمام مرآة الرواق. ولا تفقّد هندامه، هو الذي عاش بعد الاستقلال أنيقا، يتحمم ويحلق ويتعطر ويلبس الكوستار في عشايا السبت يدخل السينما أو، مثل دوق روسي يطوف ببارات تيموشنت.

ولا نادى على العارم، جدتي، أن تطمئنه على أنه لبس بما يليق أن يظهر

به، كما عادته إذ كان يتهيأ للخروج في ليلة أول نوفمبر أو صبيحة الخامس جويلية، أو لحضور مراسم زفاف أو لتأدية تعزية.

وأصابه نغص من أن سكان مدينته كلهم أكلوا من لحمه هنا وهناك تشفيا وشماتة. فاكتأب – لابد أن ماضيه، الذي نحته من صلب عناده، ناء عليه بحسرة نكْستِه في أرذل العمر.

وبحركات خطيب على منصة، تكلم أنه كان هو من يجب أن يتولى قيادة جيش التحرير الوطني في الولاية الخامسة. وصعّر، كأن به وجعا من ضرس. وتألم شادا رأسه بين راحتيه.

فشغل جدتي العارم منه أنه من يوم لآخر كان ازداد انقباضا. وأضاع كثيرا من وزنه وشحبت زعرة وجهه. وأحزنها منه أنه كان ينسى اسمها، إلا في لحظات شفافيته العابرة. ولكن عوّضها عن ذلك أنه هلّ لها، مثل طفل، كلما رآها. وانصاع لها. وطاوعها في كل حركة أتتها معه. وإن تشكك لها، في أن تكون هي التي يعرفها، ضحكت له وواسته. فشكا لها من آلام في قفاه، حد الصراخ. فحضّرت له منقوعات ساخنة. وأومأ لها بإصبعه أن كل شيء تبلبل في نظره. فأشارت له إلى هذا الشيء من أشيائه وذاك وسَمّته له. وتَخوّف لها من أن أشخاصا تربصوا به ليقتلوه. فحضنته وهدهدته. وصاح لها أن تغلق الباب. ففعلت. وسألها أين سلاحه. فاخذت يده في يدها وبالأخرى حننت على جبهته ثم خده فصدره. فهدأ. ثم أشربته عقاره.

حتى هي، حلّومة، كانت أفلتت منها رعشة هزهزت صوتها إذ ذكرت

لي أن جدتي تماسكت واقفة لما حرك لها شفتيه بما نطقته لها دمعتان على خديه تجمدتا فمسحتهما بطرفيْ كفيها، في وقار. وأجابته، بلكنتها اللذيذة: «ارقد، يا زين الوقْفة، ارقدا أنا سامحتك يا رفيقي، سامحتك!»

فبختة الشرقي، إذ رويت لها ما كنت اكتشفته عن جديٍّ لأمي خلال غداء، هي التي دعتني إليه في مطعم النجم المذنّب يوما قبل أن ترحل مع عائلتها إلى الجزائر العاصمة، كانت نفخت في جمر رغبتي أن أرجع على آثارهما الأولى: «رائع! مثير أن تعرف أين أقام أجدادك، حتى ولو لم تعد الدار دارهم!»

الفصل السادس

1

كان كفاني، بعد نزولي في محطة القطار، وسط مدينة تيموشنت، أني سألت في سقيفة القهوة الأولى شخصين مسنين عن دار سي العربي بوذراع لأقف عليها. وكنت ما أن طرقت بابها الخارجي حتى سمعت: «أصحاب الدار ما راهمش هنا. خصك شي حاجة؟» فالتفتُّ.

كان الرجل يبدو ستينيا، أسمر البشرة، ذا جسم لا يزال يظهر صلبا قويا، في بدلة بْلو مارسيّي مفتوحة عند الصدر على سلسلة ذهبية ثقيلة. لنظرته الثاقبة الواثقة، من تحت البيريه الأسود المائل قليلا نحو صدغه الأيمن، تدرك أنه لا يرتدي ذلك النوع من اللباس محاكاة أو تباهيا.

في تلك اللحظة، تخيلت له أشطارا من حياته العاصفية مع النساء والحانات والمواخير والأسفار والعراكات والسجن والقتل أيضا، من ذلك

النوع الذي لا ينشئ عائلة ولا يرتبط بزواج. ليس على مواضع جلده الظاهرة وشم أو ندب.

فمن معصمه تدلت، إلى حدود كفه، ثورمات ذهبية إذ مد لي يدا خشنة متينة بخاتم فضيّ ذي فص أسود في خنصره: «أنا مصطفى، خال مولى الدار.»، مفترضا لي أني قد أكون صديق ابن أخته. فنفيت، معلنا: «وأنا، هواري.» فاعتذر لي على أنه لم يتعرف بعدُ على باقي الأنساب الجدد. وجزم أن الفرصة ستأتي، عندما يعود ابن أخته من شهر عسله في تونس.

ولما كان سألني أكانت لي حاجة عنده فطمأنته: «أردت فقط أن أتعرف على بيت جديّ.»، تراجع فضوله، كما حركة جزْر: «آه، لاله العارم بنت خْوانا وسي العربي الشاوي؟ كانا يسكنان هنا، صح!»، غير مبدٍ لي أي تعجب أو انشغال زائد. فرددت ذلك إلى ما عاشه من تجارب، حاليَ أنا، قياسا إلى واحدة منها، لا تهز له شعرة.

ومثل صياد جذبه اهتزاز الصنارة بعد انتظار، ركزني على استذكار: «جدتك كانت معروفة هنا بذاك الاسم. أمها كانت سبنيولية. وجدك كان من الشاوية!» ففزّ في ذهني وجه حلّومة بصوتها: «لاله العارم، كانت لكنتها عذبة!»

فعلى طاولة وكراسٍ بلاستيكية ذات لون أزرق، قابلة للثني من تلك المستعملة في الشواطئ، تحت كرْمة مظللة في قلب الحوش، عرض علي مصطفى أن أتناول مشروبا باردا، مضيفا: «أنا، أفضّل بيرة.» وولج مدخل

الغرف، بينما كنت انشددت إلى بقايا آثار يد جدتي في مغروسات الورد لا تزال قائمة.

وهو يفتح لي زجاجتي: «حدستُ. أحببت دائما الرجل، في مثل عمرك، لا يمتنع عما هو من نعيم هذه الحياة الفانية.»، على خلفية أغنية كانت انبعثت من نافذة غرفة مطلة علينا.

« شِيري جُو تام
شِيري جُو تادُوزْ..

وضحك، على نقْر نَخْب، فبانت أسنانه الطبيعية مرصوفة: «أكاد لا أشرب كأسا بدونها.»، متذكرا: «من كثرة ما كنت أدفع ثمن سماعها في أحد بارات مارسيليا، اعتقد الناس أني أنا مصطفى المعني بها!»

«كومو لا صلْصا
دِيلْ يومودوز..

وفيما زامن هزة رأسه برقصة عينيه، سارحا

« يا مصطفى يا مصطفى
أنا بحبك يا مصطفى..»

تخيلتُ أنا، منشرحَ الحال، جديّ يجلسان إلى بعضهما تحت الكرْمة أيهما قطف للآخر حبة الكرموس الأولى، في لحظات سعادتهما ناسيين من حولهما الهموم والتذكارات عاريين لحبهما فاستمعا من الغنّاية إلى

الشيخ حمادة أو أم كلثوم، على كأس من الماحية. كانت جدتي، بلا ريب، طقطقت له أصابعها وجمحت عنه برأسها وقبْقبت له بحذاء ذي كعب حامل لقطعة معدنية في فستان ساتر كاشف لجسدها على شكل ڤيثارة مصرصمة الشعر عالقة به وردة ومشط، راقصة على نغم حارق إحدى أسطوانات الفلامنكو. كيف لا تملك منها مجموعة؟ فكان ذلك ما هبّله منها وجنّنه فيها، على بحة الصوت وجموح الجسد ووقع القدمين وصيحة الوجع وزفير الحنين. لا بد أنها كانت، في لباسها المجنون، تشبه عودا أندلسيا!

بأفول صوت المغني نهائيا، كنت، لنزوع قاهر، انجذبت نحو باب دخول الغرف على تراءٍ لجدي وقف عند العنبة فألبسته جدتي برنوسه وطوقت رقبته فحملها بذراعيه إلى صدره وضحكا يدخلان إلى سريرهما.

كان مصطفى تنهد، إذ عدت نحوه. ثم عبّ. فجرعت. ونظرت إليه، بكل شيء في ذهني ولا شيء بالتحديد. فأمال رأسه إلى أسفل، كأنما ليتفقد شيئا تحت الطاولة: «نحن فوق مطمورة.»، راجعا إلي: «كانت موصولة إلى نفق قصير يربطها إلى القبو باب صغير واطئ مثقّب مموه بركام من الخردة.»

وحصرني بابتسامة، خِلْتها آتية من ظلمة ورطوبة: «جدتك العارم، كانت شابة جميلة.»، مضيفا على تنائي نظرته في غور التذكار: «هي التي خبأتني فيها يوم قضيت على الكابتان.»، صارم النبرة: «لم يكن غيري

قادرا على الوصول إليه.»، ناقرا بظفر سبابته على عنق زجاجته: «كنت أرصد له حركة بعض الأشخاص ممن يشتبه في انتمائهم إلى الجبهة، كان سي بوعتروس مسئول تنظيمها السري في المدينة، قبل استشهاده، يكيّف لي طريقة نقلها. فهو الذي أوكل إلي مهمة أن أقترب من الضابط أكثر إلى أن صار، من وقت لآخر، يستدعيني إلى بيته في غياب زوجته.»

وسكت، على نفنفة تقززٍ عابر. ثم أضاف: «الكابتان.. كانت فيه الدودة.»، ممسكا بقبضته على أسفل الزجاجة: «من جيب معطفي المعلق سحبت المسدس، بكاتم الصوت. كان يمكن أن أطلق عليه في القفا.»، مقلصا ما بين حاجبيه: «قوة خارقة سيطرت علي أن أرى وجه الكابتان وهو ينظر إلى موته في قبضتي.»

وبيده الشمالية، في حركة صورية: «دفعته من ظهره إلى الأمام. استدار. تواجهنا عاريين.»، ناقلا نحوي نصف عين: «لو أني تلكأت لحظة كنت مت كلبا أو عشت موصوما بعاري.»، محركا فكه: «ابتسم، لأنه لم يصدق. أو هكذا أراد أن يوهمني. سألني ما ذا أطلب. جاوبته أني أريد ملف المتعاونين. فرد علي بأني لا أطلب شيئا كثيرا. واستدار إلى مكتبه. حذرته. فرز ملفا، مده لي. قلت له أن يضعه جانبا. نفذ وقال إنه يريد أن يخرج لي من قمطر المكتب ملفا أكثر أهمية بأسماء مدسوسة في صفوف جيش التحرير. حذرته مرة أخرى.»

وببرودة في الصوت وشدة في الملامح: «قبل أن يوصل مسدسه إلى أعلى فخذه، ضغطت الزناد نحو الرقبة والصدر والبطن. تهاوى

مخضوضا. ثم وجهتُ نحو الرأس فهمد.»، متغثياً: «ظهرت لي بشرته بلون خنزير مسلوخ! قذفت من فمي سائلا مرّاً أصفر.»

فما الذي حال دوني أنا أن أتقيأ فوق جثة خِضْرو البومة؟

واعتذر، مقوسا لي عين استسلام: «أوامر الجبهة كانت قاطعة بأن لا أترك فيه نبضا. وكان يلزم أن أسلم العارم ملف المتعاونين معه.» وأضاف، بإعجاب مازجته نبرة حنين: «كل شيء كانت دبرته خْوانا في مطعمها الذي كنت أتردد عليه، لأني كنت أحد مزورديها بالسمك: الأمر الذي وصلني والمسدس الذي وجدته مخبأ في المغسلة فوق ساحبة الماء ثم لجوئي إلى دارها. يومذاك لم أصادفها.» وتظرف لي بإيماءة من حاجبه، مبتسما: «الأوامر العليا كانت نزلت من عند جدك!»، مستكثرا لي، على عجبي: «كان الملف يضم قائمة بأسماء عشرين. واحد منهم صار مسئولا في الحزب.»

وسرح، فيما لاحقته بشغف: «ذات يوم، كاد جدك يقتل ذاك المسئول.»، مدوّرا خاتمه، موليا وجهه نحو النافذة: «آه، لاله العارم!» وعلى ابتسامة آفلة: «هي التي سلمتني أوراق هويتي الجديدة باسم مصطفى سنوس يوم خرجت من هنا لأركب البابور من وهران إلى مرسيليا. ثمة تكفل بي الإخوان من الفيديرالية.»، شابكا أصابعه تحت ذقنه الحليق: «"هؤلاء الفرنسيون أغبياء. كان عليهم فقط أن يعترفوا أنهم خسروا حربهم، كما في فيتنام، وفشلوا في مشروعهم. وكان الجزائريون

سيقبلونهم مواطنين مثلهم".»، فاكا: «هكذا قالت لي. ثم فتحت لي الباب لأخرج! لن أنسى هذا، أبدا. أحس الآن كأني قرأت كتابا كاملا في ذاك التاريخ!»

2

كنت قابلت مصطفى بصمتي المبيّت، وسيلتي الوحيدة إلى استدرار تذكاراته، لشعوري أنه وجدني الشخص الذي انتظره، كما كان قدري مع حلّومة، ليكشف لي أن والدة جدتي دخلت الجزائر ضمن الهاربين من قبضة كتائب فرانكو، فلقيت من الإدارة الفرنسية الإهانة لاعتبارها إياها غير مرغوب فيها. لذلك ظل يذْكر الذين كانوا عرفوها أنها عاشت تمقت المعمرين أيضا الذين نبذوها مثل باقي اللاجئين، لأنها كانت شيوعية زوجة شيوعي. فلم تجد تعاطفا إلا من بعض الشيوعيين الفرنسيين، ولا حضناً سوى من الجزائريين برغم ظروف معيشتهم القاسية تحت الاحتلال.

لزحزحة مصطفى، بإبهامه، ظلة البيريه إلى أعلى قليلا، فبدا نزٌّ عرقٍ على جبهته، رأيت كأن حجابا رُفع عما كان لا بد لي أن أعرفه: «الشاوي!

كان أيضا اسم جدك المستعار خلال الحرب.»، مالئا بظهره كرسيَه، راميا نحوي نظرة تعجب عابرة: «ولكن، لما ذا أقول لك هذا كله!» فهفوت إليه، بلا تخمين: «لأنه كان لا بد أن تحكيه يوما. الشهادة لا تُكتم.» فهز بي رأسه أنِ الأمر كذلك. وقام، مشيرا إلي أن أتبعه إلى داخل الغرف.

في نهاية الرواق، فوق باب الخروج، استوقفتني صورة لوحة تشكيلية، هي الوحيدة التي بدا لي أعيد تعليقها، مما كان لا بد معروضا من صور وتزاين وتحف أخرى، دسارات مساميرها كانت لا تزال مثبتة في الجدران. فنطق مصطفى من خلفي: «تذكار من جدتك لولد أختي، مع مجموعة من أسطوانات الفلامنكو، يوم باعته الدار.»

التفتّ إليه، على صدى « كانت لكنتها عذبة»، هز أعماقي: «غرنيكا!» وهو يقف جنبي، نحو الباب: «ولو أنها صورة من نسخة!» ثم زفر: «لا تزال تذكّر بوحشية الحرب.» ولاطفني، متقدما: «لا بد أن لجدتك عروقا باسكية!»

في الحوش، بادرني بصوت نقعته كآبة: «قدرٌ! كأن الزمن أمهلني مزيدا من العمر للقاء شخص له صلة بالشاوي والعارم. وها أنت تظهر.» فتظرفت له، مستنفرا حركةً عيني المنوهة: «ما زالت البركة!» فتحاشاني، نحو الكزمة: «الآن أحس قلبي، مثل طائر، تحرر مِن أسْر.»

ثم واجهني، آخذا إياي بثقته وهدوئه، بصوته، وبحركاته وإيماءاته زامَنها كلها مع إيقاع كل نبرة، إلى تلك السنين التي لن أنفك من تخميني أنها كانت قائمة مثل غروب شتاء قاسية كصقيع على جفاف، حيث كان

الناس، في تيموشنت، يعرفون أن خْوانا هربت من إسبانيا والعارم، جدتي، في بطنها بعد أن فقدت زوجها ضمن صفوف كتائب الجمهوريين المقاتلة ضد فاشيي فرانكو. فقبلت أن يتزوجها ابن القايد ضرة، على غير رضا من أهله، تعبيرا منها له عن امتنانها على احتضانه إياها هي وعائلتين إسبانيتين أخريين في أحد بيوته.

وتبسم، مدخلا يديه في جيبَي أزْرقِه، ثانيا ساقه الشمالية على اليمنى، كما في وضعية أخذ صورة تذكارية، ناقرا على الأرض بمقدمة حذائه الجلدي الأسود الملمع من نوع مو كاسان، وذلك ما شدني إليه، باحثا عن شيء لا يجده من حوله، مرسلا نظرته عاليا خارج جدران الحوش. ثم نطق أن خْوانا كانت ذات ملامح هجينة مغرية. وأن ابن القايد لذلك كان يقول إن في عروقها دما أندلسيا لا بد يعود إلى أحد أجداده البربر ضمن جيش طارق.

ورمى خطوتين نحو باب الخروجِ، بينما كانت تلك الأجواء القصية تضمحل في خيالي. ثم دار إلي، ساحباً يده الشمالية مشيرا بها خلفه: «ولد القايد هو الذي سمى المولودة باسم جدته العارم وقيّدها في الحالة المدنية بلقبه هو، شريف.»

كنت تقدمت بخطوة واحدة لما أضاف: «ثم مات عنهما.»، ممشطا بنظرته الفضاء من حوله: «تاركا لهما هذه الدار.» فتحسرت له في صمتي: «التي لم تعد دارهما الآن.»

وقال لي: «هذا المكان و..»، قاطعا فجأة كأنما من زلة لسان. ثم

استأنف: «كنت أخذتك إلى حيث عرف جدك جدتك أول مرة لولا أن غرنيكا تحول إلى محل لبيع الدجاج المشوي.» وحرك كتفيه باسطا لي كفيه على خيبة، فيما شعرت أنا بدوار عابر.

وإلى الجدار، قريبا من باب الخروج، أسند قامته عاقفا ركبته، شابكا يديه عند بطنه. ونطق، بصوت رطّبه حنين إلى تلك الأيام، أن جدي عرف جدتي في مطعم غرنيكا الصغير، لما كانت تشتغل مساعدة لأمها فيه. ولم يكن أحد، من الأقدام السوداء من مرتاديه، ليمنع جدي من دخوله يوم السبت خاصة. فإنه كان من أشهر جناة العنب في منطقة وادي المالح (ريو صالدو، سابقا) كلها. وبقدر ما كان شجاعا ومعاركا شرسا بقدر ما كان يكره الظلم.

«مثلك!»، كما ابتهجت لمصطفى. فاهتزت نظرته نحوي. لكنه ما لبث أن واصل، كأنه لم يسمع ثناء، أن جدي كان انخرط في صفوف الكونفدرالية العامة للشغل ومنها في الحزب الشيوعي. ثم انسحب وانضم إلى إحدى خلايا جبهة التحرير، في نوفمبر العام الثالث من الحرب فنفذ عملية فدائية باقتحامه ليلا هو وأربعة آخرون مركزا متقدما للجيش الفرنسي بتنسيق مع عسكري جزائري من داخله فقتلوا جنديين قاوما واستولوا على مخزن الأسلحة والذخيرة.

وهو يمسك بظلة بيريه، فحركها يمينا شمالا، نظر إلي بما أشعرني أنه يعرف أني أمتلئ اعتزازا. وتوجه، على فضولي، إلى شجيرة ورد مخضرة الأفنان ذات أكمام لامس بيمناه أحدها قد انشق. ونطق، ملتفتا، أن زاوج

جدي، في خريف عام الاستقلال، بجدتي على السُّنة بعد أن شهّدت، كان يوما لا ينسى. وتبسم، مبتهج الصوت: «كرى فرقة بارود من فرسان ڤوم سبْدو. وجاب الشيخة الرميتي غنت حتى الفجر.» ثم أطرق. فسألته، على لهفة: «هل عرفته؟»

كنت اقتربت منه، كما لم أفعل من قبل في أي لحظة، فشممت رائحة من تلك التي ليست من عرق ولا من صنن، بل مما ينبعث من جسم كان مترعا بالفحولة. فهمس لي: «جدك عاش أيامه في الزهوا»

وفيما تنهدت، أسفاً على ظلم زمني يحرمني من جد كجدي، كان مصطفى أجابني: «آه! الشاوي، سي العربي بوذراع. بعد الاستقلال بعام شربت معه، في الصيف، كيسان ماحية في غرنيكة، التي استولى عليها ضابط من جيش التحرير، بعد وفاة خوانا.» كنت سأساله أين دفنت لما بادرني: «عظامها لا تزال موجودة في مقبرة النصارى ضمن مربع الإسبانيين.»

ثم، وهو يدوّر الڤورمات في معصمه، ضحك لي: «كنت أكثر عنادا من جدك. هزمته. لأني رفضت أن أمضي له على ورقة إثبات عضويتي في منظمة الفدائيين لاستخراج فيش كومينال.»

واستعاد لي بإيماءة تمثيل من يديه: «"سي العربي! أنا عندي عملي في فرنسا. الله يخلف على الجبهة وعليك والسيدة العارم. يوم تورّي لي بلي أنت عندك شهادة تثبت أنك مجاهد أنا نمضي لك على أي وثيقة!"»

وعلى حسرة، أضاف بحركة تأكيد من رأسه: «لأن جدك كان أعلن لمن أراد أن يسمعه أنه ليس معطوب حرب ولا قعيدا حتى يأخذ من الخزينة العمومية منحة مجاهد.»

وأعلن إلي، بانقباض في الصوت: «جدك، ظل مدير معصرة إلى أن تقاعد.»، مضيفا أن تلك المعصرة كانت تنتج أجود نبيذ أحمر في المنطقة، يصدّره الديوان الوطني لتسويق الخمور.

وأومأ برأسه نحو مدخل الغرف، معتذرا لي بأسف على أني لم أستطع استنشاق ما كانت الغرف الثلاث والصالة والمطبخ لا تزال تحتفظ به من رائحة جديّ. فإن الأثاث كان بُدل بغيره مما هو عصري جدا. وإن جدرانها كانت لُبّست ألوانا أخرى جديدة من طلاء زيتي، مثل الوردي لغرفة النوم.

شيءٌ مثل حنينٍ كان أثارني بأن أتمتم في سري: «جدتي، خلافا لعوائد النوم في فراش لا يزال يبسط أرضا في غالبية البيوت الجزائرية إلى الآن، لم تكن رقدت يوما إلا على الناموسية.»

كان مصطفى رمى إلي، بود: «أنت، إذاً، حفيدهما من بنتهما الوحيدة.»، منتظرا على ابتسامة أن أستصدقه. فهززت رأسي، متخيلا قصة أمي الشابة مرت فصولا في ومضة. واستأذنته في الانصراف.

فقد فتح الباب، قائلا بنبرة دعوة: «لم أنقطع عن زيارة الوالدة في العام مرة على الأقل إلى أن توفيت. أنا أقيم في حوشها غير بعيد من هنا.»

فنظرت إليه، مفعم الخاطر امتناناً له: «قد أزورك يوما ما.» وأخبرته، متجنبا، لسبب مبهم، ذكْر أمي: «جدي وجدتي يتعانقان في رقدتهما الأخيرة.»

فتنفس، عميقا. ثم ابتسم: «كانا عاشقين كبيرين!»

الفصل السابع

1

قبل سفري إلى الجزائر العاصمة بيوم، كنت دخلت على عاشور بونعايم مدير عمل والدتي، متوقّعا أي شيء إلا أن يقوم من خلف مكتبه الرئاسي، في الطابق الأول من بناية بدورين، ويصافحني ثم يدعوني إلى الجلوس قبله على الأريكة الجلدية السوداء.

خطر لي فعلا، إذ عاينت مظاهر الترف عاوية على التحف الخزفية فوق صوانات من الخشب الملكي وعلى الأجهزة الإلكترونية والثلاجة والمقصف الصغير بكئوس بلورية من أحجام وأشكال مختلفة والسجاد القطني المبثوث والستائر الحريرية المسدلة وفي كل زاوية وفي أصغر عنصر من تشكيلة الأثاث ذات الألوان المتزاوجة بين صفرة وسواد باهتين، أنه لا ريب يعرض على غيري مشروبات أخرى من دون القهوة التي كانت

الوصيفة، غير السكرتيرة، وضعتها على الطاولة الرخامية وانصرفت ببسمة وهزة، على خلفية موسيقى صامتة نابعة من كل مكان ولا مكان.

فقد غوى ذهني بأن عاشور بونعايم يتخذ من مكتبه الفخم مكانا للاختلاء أيضا، متخيلا أمي بين يديه، بإغراء أو على تراض أو بإكراه، وقد أطبقت بلمسة من رمشيها المكحّلين الوارفين على تفاصيل أخرى.

اليوم أجزم أن أمي، لما عرفته لها من كبرياء، لم تكن هي التي طلبت مقابلة مدير عملها، قطعاً. فهو الذي رغب في ذلك مذ كان قبِل طلبها. فإن واحدة من أولئك اللائي كن يترددن عليها في بيتنا، من أجل أن تفصل لهن عبايات للأعراس، كانت هي التي اقترحت عليها، كما أخبرتني صباحَ أول يوم التحاقها، أن تقدم طلب عمل لدى عاشور بونعايم – ها هما عيناه ترفل عليهما تلك الابتسامة التي تكون دغدغت قلب أمي. وتلك، كما أذكر، كانت نظراتها المثقلة بشموخ أنوثتها الآسرة التي سحرته.

صدفة أم قدراً كان الذي جذبهما إلى بعضهما؟ أين وقع الذي حدث أول مرة، بأي مناسبة، مبعدا أنا بهذه الهشة الذهنية وتلك، مثل دجاجة مفزعة، كل ما داهم مشاعري عن أمي تستسلم؟ وكان لها، لو أني سألتها يوما عن خرجاتها لغير العمل وتدبير شئون البيت، أن تقدم لي أي ذريعة لأقبلها! ولما ذا، وأنا أقطع مثل خيط عنكبوت ترددي في أنهما تجاوزا نحو بعضهما حدود علاقة رب العمل بالأجيرة؟

عجزي، عن أن لا أشك، كان قاسيا. فإني كنت، مثل عراف يقرأ لنفسه طالعه في كفه، متيقنا من أن بونعايم فتنته أمي. شيء من كبريائها،

كما أكون ورثتها، منعني أن أسأله إن كان ذلك حقا، وفي نفسي ضجيج رغبة في أن أرى حلْية وجهه وهو يجيبني. ولو أني كنت رددت، بلا قيد: «أحببت فقط أن لا أُخلف وصيتها. هي التي أرادت هذه الزيارة.»، لما ألقى يجاملني: «كنت أنتظر أن تطل علي يوما.»، وفي نظرته إلي بريقٌ جاذب قوي، كان، بلا ريب، هو ما أذكى به في قلب أمي جذوة غرام، أزهرت لأيام كثيرة على وجهها غبطة لم يكن باعثُها وحده أُنسَها بي واطمئنانَها إلى أني كنت لن أنبش في حياتها الخاصة أو أخيّب لها أملها في أن ترى نجاحي الدراسي قد اكتمل.

خلْتُ عاشور بونعايم، يوم استقبل أمي في مكتبه، هو الذي ارتبك لإشعاع حضورها. لحظتها، وقع تَخاطرٌ بينهما. ذلك ما رجّحتُه. واستبعدتُ أن تكون أمي رضيت أن تقبل بعرض عمل آخر غير الذي أحبت أن يراها غيرها فيه: حِرَفيةً! وهو ما قد يكون انسجم لها مع مهارتها اليدوية. فبعد ترملها، ولبقيَة أعوامي في المدرسة الابتدائية، لم تكن يداها تكادان تفرغان يوما من تفصيل عباية من عبايات الأعراس التقليدية في وهران لهذه المرأة حتى تدخل عليها أخرى بطلبية جديدة.

فلم أَعدَّ الأمر إلا طبيعيا، وكذلك كان، أن تفضل أمي العمل على آلة خياطة في المشغل المنتج لتشكيلة من ألبسة النساء الداخلية. كانت أرتني منها يوما جوارب نيلونية، متحفظة على ما بقي معلّبا وعليه ماركة بونعايم لملابس النساء. ظننتُ ذلك لتثبت لي، و لم أكن طالبتها بأي إثبات لطبيعة شغلها، أنها تخرج لتعمل فعلا.

بعد وفاتها، إذ فتحتُ خزانتها، بحرقة في القلب ودمعة في العين، كنت وجدت أيضا مجموعة من ملابس داخلية أخرى لم تستعملها. كانت حسنية إذ خرجت من الحمام، في ليتها الأولى تلك، داعبت القميجة بأناملها، ممررة إياها على نهديها وبطنها. ونظرت إلي، ببسمة ماكرة: «أمك تلبس الحرير!» فرددت، كأنما على غيرها: «لأن رجلا سخيا يكون عشقها.» وفي صدري اضطرام غيرة: «لجمالها، هي تستحق ألطف من الحرير.» فسألتني، بنبرة مخاتلة: «عاودتِ الزواج؟» فأجبتها، ببرودة: «في قبرها!» فانقبض صوتها: «سامحني!»

لم يكن عاشور بونعايم، كما اعتقدت، قصَد أن يخفف عني من وطأة صمتي، وكنت أنا الملزم، لياقةً، بأن أعرض سبب زيارتي غير المعلن، إذ مدح لي: «كانت على حياء نادر. وذات جاذبية قاهرة!»، بل إنما استبق إلى تحييدي عن مجابهته صراحة في ما يكون لحق أمي بسببه هو، كما كنت ظننت. وخمنت أن رجلا خمسينيا مثله، وكان على مظهر لافت من الوسامة واللياقة والهندام، لا يمكن إلا أن يكون نقطة جذب ومنبع طمع لغير ما امرأة.

ففيم تكون أمي طمعت إذاً، و لم أعرفها إلا زاهدة، إن لم يكن تعويضا لجسدها البض العذب المقهور بصبرها في سرير خال من رائحة رجل، كان يأخذها إليه راغبة أو مكرهة – فإني ما نسيت أبدا شدة ما تلقته من كف أبي، وقد قُتل، من غير أن أتأكد إن كانت الصفعة حدثا عابرا، بفعل خلاف كما بين أي زوجين بلغ حالة غضب قصوى، أم مقدمة لنزاع كان سيتطور إلى ما هو أشد إذلالا؟

ففي خلال علاقة سريرية غير حذرة، وما سوى هذا استبعدته، يكون جسم عاشور بونعايم اخترقه الفيروس الذي كان له أن يدمر جسد أمي. فإني أزحت أي علة أخرى كنقل دم ملوث، ما دام أنها، بعلمي، لم تخضع لإجراء أي عملية جراحية.

فللحظة ما رن جرس هاتف المكتب، فرفع عاشور بونعايم السماعة بابتذال متأفّفاً لي: «لا يتركون لك فرصة لتخلو إلى نفسك أو أن تستمتع بلحظة مع من ليس له حاجة إليك أو عمل يربطك إليه.»، دققت في وجهه، وكان مشرقا بكامل العافية الظاهرة، وادّاً لو أني كنت أنا من يأخذ عينة من دمه لأحللها. فأقفل السماعة على إيماءة امتعاض. وردني إليه بنظرة مبتهجة، إن لم أقل محتفية، شوشت ترتيب أسئلتي. بل، بعثرتها.

ثمةَ، أحسست أن عاشور بونعايم هو من كان باشر أمي، جالسة حيث جلستُ. كانت، حينها، في ذروة نضجها واكتمال جمالها. لم تترك له فسحة أخرى غير أن يتشهّاها.

وهو يُظهر لي ابتهاجه ذاك، إنما رأيته كان سعى إلى أن يزيل بينه وبيني حاجزَ لياقةٍ تُقيمه مظاهر مكتبه الباذخة أكثر من شيء آخر كيما أفصح له عن نيتي من دخولي عليه، و لم تكن سوى أسئلتي عن علاقته الأخرى بأمي غير ظروف عملها في مؤسسته مذ كنت انتقلتُ أنا إلى المتوسطة فتوقف طرْق أولئك الزبونات بابَ بيتنا و لم أعد أسمع من غرفتها هدير آلة خياطتها المهدهد لي حين أدخل فراش نومي غالبا.

فأي عمل كانت ستؤديه أمي غير أن تجلس إلى ماكينة أكثر قوة وأداء

في معمل عاشور بونعايم الكائن بالطابق الأرضي، من البناية ذاتها، رادة كل عرض آخر، كما أخربتني إحدى زميلاتها، وكانت في سنها ولكن سمراء متوسطة القد على غير بياض بشرتها وقوامها الأهيف، يوم عزتني فيها عند مدخل العمارة، مثل بعض زميلاتها، إذ خرجن من عند عَيْشة زوجة عبدقا النفريطو، متحسرة تارة متأوهة أخرى، غيرةً من أمي أو حسدا لها، أو لوعةً على فراقها، لعلاقة ربطتهما إلى بعضهما ظلت في طي أسرار النساء؟

ولَمَ لم يتكفل عاشور بونعايم بأمي إذ ظهرت عليها أعراض مرضها، فلا بدَ أنه كان لاحظ ذلك؟ ولكن كيف كانت أمي المكابرة أن تترك أي عرَض، برغم اكتساحه، يتبدى، وقد عاندت أن تخفيه عني، أنا ابنها الوحيد، إلى آخر لحظة! برغم ذلك، رسخ لدي أن رب عملها فاتحها فتجاهلت وعارضت وهجرته أيضا، مقاومة أن لا يفقد فيها صورة تكون مفاتن جسدها، قبل أن يبدأ اعتلاله، حفرتها في ذاكرته.

كنت أعرف أنها لا تتمتع بحقها في الضمان الاجتماعي. فإني لم أعثر في أوراقها على أي وثيقة من ذلك. ومن قبلُ، لم أكن رأيت يوما في يدها الوصفة الطبية مرفقة بورقة المرض، كلما عادت بدواء إثر وعكة طارئة، بسبب زكام أو مغص كان، لتكراره دوريا، بسبب محيضها أيضا. فإن بدنها كان ذا بنيةٍ مقاومة جدا.

2

ببعد المسافة الآن قليلا، أستطيع أن أقر لنفسي أن عاشور بونعايم كان صفَدني بمجاملته: «فيك ملامح الرجل المهيأ للنجاح.»، بعد أن قطّر لي بعض خصال أمي من بين الخمس عشرة امرأة عاملة في ورشته، كمواظبتها وأمانتها وإتقانها، فيما كنت رددت إلى أعماقي: «كجمالها وغوايتها وطراوة بشرتها!»

ومثلما كان عاشور بونعايم سيحدثني عن نيته تجاه أخت لي أو قريبة، وليس عن وهيبة أمي، استطرد لي أنه عرض عليها الزواج مرة فأبت. ونظرٍ إلي، كما لم يفعل قبل اللحظات السابقة كلها، بملامح فائضة حسرة: «تذرعت لي بأنها لن تجد أبدا الشجاعة لمقابلتك.»، فاتحا عينيه علي: «أنت!»، ما زادني منه قناعة في أن علاقته بأمي ربطتها عقدة غواية. فاغلقت وجهي دونه إلى داخلي: «تستطيع أن تزعم أكثر من

ذلك لأنها لم تصبح من هذا الوجود؟»

ولأني لم أبدِ لعاشور بونعايم أني كنت سأبشر، لا لأن أمي كانت ستتزوج رجلا ذا ثروة، كما كان يظهر، ولكن لتستعيد إحساسها بجسدها فتنظر إلى وجهها في مرآتها بلا كآبة، فإنه سوّغ لي على زفرة: «فقدت زوجتي وابنتي الأولى معا إثر عملية قيصرية فاشلة.»، من دون أن يفك عني حصار عينيه برجاء أن أضع أسلحتي التي دخلت بها عليه، كذلك شعرت به تحسس انقباضي: «انشغالاتي وسفرياتي هي التي تكون ألهتني عن الحظوة بامرأة، مثل السيدة وهيبة، كان يمكن أن تكون أما لأولادي.» فاقشعر جلدي، لرؤيتي أبي عاد من العدم شبحا نكيرا داهم أمي.

وبهشّة من رأسه، همدتْ على ابتسامة، لاطفني: «وجهك مرسوم كوجهها!» فضغطت انفعالي إلى أعماقي. فكسر نظرته: «لما ذا دنيانا، ما فائدتها، إن عشناها بلا حب؟» فتعجبت لنفسي: «حب!»، متوهما أنه رأى، في ما بداله صمتا مني وهدوءا وصبرا، إعلانا عن تقبلي ذرائعه كلها ومجاملاته وتظرفه أيضا، من غير أن يدرك ما بداخلي من غليان. ثم حرك نحوي يديه: «أعرف بعض ما عانيتَ.» فنطقت له بشكر.

لا بد أن حرَني عن مجاراة عاشور بونعايم، كما كان لاحظ، هو ما جعله يعدل ظهره ويقول لي بصوت مخفّض، كأنما لسر، عاقفا أصابع يده الشمالية إلى صدره: «اعتبر أن لك صديقا تعتمد عليه.» فجددت له شكري، على ريبة من عرضه. فبسط راحتيه على ركبتيه. ثم ركزني، ناطقا ببرودة مفاوض بيده ورقة الربح: «أنا في حاجة إلى من يتولى إدارة المعمل.

أكون مطمئنا عليه إن أنت قبلت. ستخفف عني عبء إدارة شركة استيراد السيارات.»، ناقلا إياي بعينيه عبر الفضاء: «وسيكون هذا مكتبك.»، شاقا لي ابتسامة: «أنا سأنتقل إلى الطابق العلوي.»

للحظة، أحسستني تحت زخة برَد ألزمتني بنشر مظلة سكوتي، الأمر الذي كان أوهم عاشور بونعايم بأني قد أكون قبلت عرضه، لولا أن وجهي كان أفصح عن غير ذلك، كما يكون لاحظ، لأني قبضتُه فعلا.

«لم تُجبني!»، هكذا نطقها، برجاء. وقام. فقمت. ومن خلف مكتبه نظر إلي، أواجهه فارغ الوجه من أي إجابة. فتبسم. ومن درج، أخرج دفتر شيكات فتحه. وتناول قلما فوضع بالأرقام، نصف مطأطئ، مبلغا ثم كتبه بالحروف يسارا نحو يمين وأمضى واستقام ومده لي: «منحة وفاة المرحومة ومخلفات أيام عُطلها. أضف اسمك، فقط.» فأدخلت يديّ جيبَي جاكتتي: «ربما أخذتُه يوم أعود إليك بجواب.»

«يا إلهي!» وكنت، إذ أغلقت الباب ورائي وركبت الطاكسي إلى حي السانية في الضاحية الجنوبية، حزمت إرادتي على أن أدخل عنوة، إن بدا أن السكرتيرة تلكأت عني بما تَصْرف به زائرا غير مرغوب فيه، وأن أواجه عاشور بونعايم بعبارة واحدة، وحيدة: «يا شْماتة!»، انتقيتها من بين "يا طحان، يا كلب، يا رخيص، يا خنزير، يا حقار" فبردت، بمرور تلك اللحظات، برودة معدن المسدس الذي كنت عبأته وثبته في جيب جاكتتي الجلدية. وتعطرت. ونظرت في وجهي آخر نظرة. ثم رميت خطوة صباحي الأولى خارج بابي.

3

كان قطار الثامنة إلا الربع صباحا قد أقلع في اتجاه الجزائر العاصمة لما أخذت مقعدي في مقصورة الدرجة الأولى، لا أحمل غير حقيبة كتف صغيرة أخرجت منها كتاب المرآة، الذي لم أستوعب بعدُ ما جعل صاحب المكتبة التي كنت اشتريت منها ديوان المتنبي يقترحه علي آنذاك. فعقلي كان غفلا تماما مما له علاقة بالتاريخ، الذي أضجرني درْسه في المتوسطة ثم قرفْته في الثانوية، ليس بسبب أستاذه الذي كنت في حصته الثانية، التي لم أحضر بعدها غيرها، اعتذرت له مدعيا مغصا، لأنه كان يتكلم مثلما تسمع كركبة حجارة هاوية من جرف، ولكن أيضا بسبب موضوعات يقترحها الكتاب المقرر لا تجيب عن أي سؤال يشغل ذهنك إذ تعي فجأة أن من حولك تاريخا آخر وأفعال رجال آخرين وأحداثا

ونزاعات وصدامات ودسائس أخرى جرت كلها على أرض أنت تعيش فوقها وفي زمن ممتد فيك.

ولا كنت أقنعت نفسي بشيء مما جعلني آخذ المرآة من دون بعض الكتب الأخرى. اليوم أعزو ذلك إلى الصدفة إن لم يكن إلى ما ترسب في لاوعيي عن الرحلة كما في المرآة.

كتبٌ، منذ توبيخ بختة الشرقي إياي على كسلي، صرت أنتقيها من وقت لآخر، من تلك المكتبة، التي لا تزال تقاوم، بعد أن أغلقت أبوابَها بقيةُ المكتبات الأخرى القريبة منها في شوارع الأمير وبن مهيدي وخميستي؛ فمنها ما حُول إلى تجارة الألبسة والأحذية ومنها ما ينتظر مخرسا بأقفاله الصدئة، مثلها مثل بعض البارات والمطاعم العتيقة.

وكان يمكن لي أن آخذ أحد تلك الكتب الثلاثة التي اشتريتها، لاحقا، دفعة واحدة لتناولها ما كنت تصورته جديرا بأن أقرأه في الثانوية عن الاحتلال وعن الحركة الوطنية والأحزاب وعن حرب التحرير.

ليلة رحلتي، انسكنت فعلا بحيرتي في ما كنت سأفعله طيلة مدة سفري، الذي كانت فكرته سيطرت علي مذ كنت، قبل ذلك في الضحى، تلفنت إلى بختة الشرقي على الرقم الذي كانت تركته لي. فردت علي، بدلَها امرأةٌ، كانت أمها: «أنت هواري؟ عاودْ لها بعد ساعة!» فلما سمعت حرارتها هي، بعد ذلك: «هواري؟ توحشتك! هذه مدة طويلة.»، أحسست جسدي انصهد. وقلت لها: «بغيت نشوفك. راني

جاي غدوة الصباح في القطار السريع.» فغاب صوتها عبر الخط، للحظة ما تخيلت صمتها تكتل بكل الكلمات التي أسقطناها، ثم عاد ممتلئا: «قد نلتقي في محطة أغا.»

فطول الرحلة، إذاً، وكلما عادوت النهوض من مقعدي المنفرد، تاركا فيه المرآة، على الشِّمال في اتجاه سير القطار، مثلما كنت طلبت من عون شباك التذاكر في محطة وهران أن يحجز لي في تلك الوضعية، تمشيت لا لأسرّح رجلَيّ بخطوات مقتضبة في الرواق ووصولا إلى المرحاض ثم عودةً نحو الكافتيريا، ولكن لأبعثر هاجسي من عبارة «قدْ نلتقي». فإنه شغلني، حد أن شعرت أني لم أحتفظ بجملة واحدة من قراءتي عشرات الصفحات، إن كنت سأجد بختة الشرقي في انتظاري، بعد أقل من خمس ساعات، حين أنزل في محطة أغا المركزية.

فقد كنت وقفت على رصيف النزول، لا أقدّر الآن كم من ثانية ولكن بما كان كفاني أني استعرضت الوجوه المستقبلة ذات النظرات الفارزة في اتجاه العربات لتُسفر لي، في النهاية، عند منْفذ الخروج امرأةٌ ثلاثينية.

كأني أراها الآن، لوقفتها الثابتة كما في حال استعداد. كانت بشعر أسود مسرح إلى أسفل على كتفيها، في بدلة بنفسجية استوعبت تفاصيل جسدها القويم. من أولئك العاصميات اللائي يُشعرنك بحضَرِيَتهن لمجرد أن تلحظ في إحداهن تناسق تقاسيم وجهها الهادئة الواثقة مع ماكياجها الخفيف المستقي لها جذبا من ألوان ما تلبسه أكثر مما تُسبغه عليها الكريمات المستعملة نفسها.

نظرت إليها، بخيبة كاسرة. بادلتني، بعينين لوزيتين صارمتين، رفة ابتسامة كانت هي خيط الوصل بيننا: «هواري؟» فجاوبتها بإيماءة، على نقْر «قدْ نلتقي» في ذهني كما بمطرقة. فأعلنت، ببروتوكولية: «أنا سكرتيرة والد الآنسة بختة.»، مضيفة، على ظني الجزافي أنها أُرسلت لمرافقتي: «كلفتني أن أخبرك أنه يتعذر عليها ملاقاتك.» وأخرجت من محفظة يدها السوداء، كما هو لون حذائها، ظرفا مدته لي، على حيرتي الفاقعة: «وأن أسلمك هذه!»

فككت لها من لساني: «شكرا لك!» فنظرت إلي، ببسمة طرية: «وهران مدينة ساحرة!» فبلعت مغصي، هازا رأسي بتأكيد: «ويحلو الموت فيها أيضا!» فبحلقت إلي بما عنى لي: «والله!» ثم تولت. فتراءت لي كتلة الزمن التي كانت تلفّها، مثلما لم تلفني أنا، حالت مرْكبة من بلّور اختفت بها في سماء الجزائر العاصمة الشهباء مثل حزني!

كنت، إذ دخلت أول قهوة، في طريقي عبر شارع عميروش نحو محطة أغا، رصيف الركوب، لأعود في قطار الثالثة مساء بلا تفكير في شيء آخر غير ذلك، ابتسمتُ، إشفاقا على حالي، لائكاً ما كان انطبع في ذهني من المرآة دون غيره: «فإني أتساءل لما ذا تزعزع بلادي في جميع أسسها وتصاب في جميع مبادئها الحيوية»، قالبا السؤال على ذاتي بلا أمل في جواب. ثم طلبت كازوزة لم أذقها، مهموما بفتح الظرف.

كيف خرجت من المقهى، كيف وصلت المحطة؟ لا أذكر سوى أن حواسي كان العطل أدركها لما أقلع القطار في اتجاه وهران.

الآن، وقد عاودت طي الرسالة، أشعر برجة من الدوار الذي كان أصابني لما قرأت، في المقهى، قبل حوالي عام «لا بد أن أكون أنا في الطائرة نحو باريس، إن كنت أنت اللحظة تقرأ هذه الرسالة التي كتبتها لك على عجل هذا الصباح. حتى البارحة ليلا، لم يكن سفري مؤكدا. أثق في عمق صداقتنا لتتفهم الأمر. سأنزل عند خالتي. يجب أن أقول لك إني، منذ رحيلنا إلى العاصمة، أحسست شيئا ما دبر لي بين أبي وأمي وبينها وبين خالتي أيضا، بذريعة إتمام دراستي العليا رفقة ابنها هناك. كنت أعرف لو أني شاورتك في الأمر لنصحتني بأن لا أكسر خاطر والدَيّ. فأنا ذاهبة لتلبية دعوة خالتي ثم لأرى بعيني حتى يكون لي حكم على الأمر إن دعت الضرورة. آسفة وحزية. بختة».

ها هي حبات المطر على زجاج نافذة البهو تتفرقع، مثل أحلامي. سأقوم، من حيث صرت صباح كل يوم حتى منتصفه أجلس على السداري الثاني إلى الطاولة بهذا القلم لهذه الأوراق مذ رحلت بختة الشرقي، لأرى طلائع الخريف تُلبس وهرانَ الشاحبةَ وشاحَها الرومانسي.

شيء مثل الحزن، كالكآبة، مثلهما معا، يسيطر علي الآن. أحس عضلاتي ترتخي، عيني تثقلان، حنينيَ يثور إلى أجواء مدرستي الغائمة الماطرة إذ أختبئ تحت سقف أقسامها العلْوية، أو إذ أجري هذه المرة أو تلك تحت الزخات عائدا إلى بيتنا السابق هنالك في حي اللوز فاستنشقت رائحة التراب الأحمر.

وها إني أسمع، كما غالبا، رنة جرس باب جاري المقابل، كأنه عندي.

لم يعد ذلك يثيرني. فمنذ عام كنت عطلت الجرس فاسترحت أيضا من إزعاج النساء الدلّالات، بائعات الذهب وشارياته، والباحثين عن الخبز اليابس، ومقايِضي الكسوة المستعملة والأجهزة الكهرمنزلية القديمة وأثاث السقْط، وأحيانا المتسولات اللائي يمددن أيديهن لأي شيء.

فإني لم أعد أفتح لأحد غير عبدقا النقريطو في أوقات نتواعد عليها لنخرج عشية الخميس إلى بار التيتانيك ومنه إلى الكورنيش أو إلى الميلومان لنسهر. ثمة كان أرزقي قدم لي ذات ليلة إحدى زميلاته في العمل، بطلب منها، مضيفا وهو ينصرف: «نعيمة، حبّتْ تتعرف عليك.»

ولكن، لمن تكون الآن هذه الدقات الخثيثة على بابي؟

بين: أدرار، سعيدة، وهران 2012

الموت في وهران

احتشد المارون في ساحة المغرب العربي (لاباستي، سابقا) حتى حدود كنيسة الروح القدس المخرس بابها، على تذكار تفجيرٍ في ليلة صيفية كان شتت أشلاءَ جسديْ أُسقفها كلافيري ومحمد سائقه الشخصي.

وعند الأكشاك الأربعة، كأبراج رُكْنية لحصنٍ اندثرت أسواره: نساء ورجالا، فتيانا وصبايا بأعمار متفتحة وأخرى آيلة إلى ذبول، في أزياء ربيعية وأخرى لا تزال تحمل آثار شتاء المدينة الساحلي.

ومن شرفات بناية وهران بويلدينغ أطلت وجوه عتيقة لأزواج من بقايا الأقدام السوداء. تحتها، من حانة فالوريس (سابقا)، خرج بكؤوس قهوتهم المعصورة مَن تبقى من زبائن كانوا، قبل حوالي ثلث قرن، شبابا وكهولا متوثبين يحتسون البيرة فيها مع القَطعة بالمرقاز والدولمْة والعصبان والسردينة المشوية والبصل والليم أو يشربون الپاستيس مع الكَمْية بالحمص والفول والببّوش بالملح والكمون وأنواع زيتون السيڤية الملحّم بألوانه الخضراء والسوداء والبنفسجية خاصة. أو هذا الشراب أو ذاك مع هذه القَطعة أو تلك الكَمْية.

كانوا يرفعون كئوسا أخرى، بشراب آخر، أنخابا لأيام أفراح غيّبها أفول زمانهم وخذلتهم فيها شيخوختهم - فإن عبدقا النڤريطو لم يكن حدّثني إلا قليلا مما يُبكي قلبه على زمن وهران.

الغلاف: بسمة صلاح

دار العين للنشر
Elain Publishing House

9 789774 902390